القسم الثاني

مَنهَجُهُ وَأسلوبُه

obeikandl.com

obeikandl.com

التصوير في القرآن

أسلوب القرآن

دراسة عامة لخصائصه

سنلخص في هذا الفصل معظم ما سنأتي على تفصيل البحث فيه إن شاء الله. إذ الحديث عن إعجاز القرآن وتصويره وفن القصة فيه وطرائقه التربوية وغير ذلك من فنون هذا الكتاب العظيم، إنما هو في الحقيقة بسط لمنهجه وخصائص أسلوبه.

غير أن علينا ـ قبل الخوض في كل جانب من هذه الجوانب على انفراد ـ أن نتصور الأسلوب القرآني في جملته، وآن نستعرض هذا الأسلوب استعراضاً سريعاً يجلّي في أذهاننا روعته وحدود الفرق بينه وبين أيّ نظم أو كتاب آخر، حتى إذا وقفنا على ذلك، عدنا إليه بالتفصيل وشرح كل جانب منه على حدة.

الخاصّة الأولى (جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف):

وأول ما يطالعك من مظاهر أسلوب القرآن لدى النظر فيه، أنه يجري على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، ويقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم، وله أسلوب خاص به لا تجد منه عند أيّ فن من الفنون العربية المعهودة.

ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً؛ وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبيّنة ومعروفة. والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك، ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات

منه فتشعر بإيقاع موزون من تتابع آياته، بل يسري في صياغته وتآلف كلماته، وتجد في تركيب حروفه تناسقاً عجيباً، بين الرخو منها والشديد، والمجهور والمهموس، والممدود والمقطوع، بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارىء العربي كيفما قرأ، إذا كانت قراءته صحيحة.

ومهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سوره، وجدته مطبوعاً على هذا النسق العجيب.

غير أنه إذا كان لا بدّ من مثال نعرضه لاستجلاء هذه الحقيقة فيه، فلنعرض لك تلك الآيات التي تلاها النبي ﷺ على عتبة بن أبي ربيعة، يوم جاءه رسولاً من قبل قريش يعرضون عليه المُلْك والمال والزعامة على أن يتخلى عن دعوتهم إلى توحيد الله:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فصِّلَتْ آياتُه قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون. وقَالوا قلوبُنا في أكنَّةٍ ممَّا تدعُونا إليه وفي آذانِنا وَقْرٌ ومنٍ بيننا وبينِك حجابٌ فاعملْ إنَّنا عاملون. قُلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحد فاستقيموا إليه واستغفروهُ وويلٌ للمشركين ﴾.

فحسبك أن تتأمل في صياغة هذه الآيات وكلماتها لتجد فيها مصداق ما ذكرنا، على أنك واجد ذلك في جميع آيِ القرآن وسوره.

فمن أجل ذلك تحيَّر العرب في أمره، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه، فكان أن انتهى الجاحدون منه إلى أنه السحر واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من ربِّ العالمين.

ولك أن تسأل هنا: فكيف تقول إن القرآن يختلف عن جميع طرائق النثر المعهودة؛ مع أن فيه كثيراً من السجع، وهو منهج من مناهج النثر العربي؟

والجواب أن السجع ليس مجرد تقفية للجملة أو المقطع من الكلام بقافية

obeikandi.com

واحدة من الحروف والوزن، بل هو ـ كما قال علماء هذا الشأن ـ موالاة الكلام على وزن واحد. فإذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه بأن كان أحد مصاريعه كلمتين وبعضها أربع كلمات، كان من قبيح الكلام. فللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق معين مضبوط متى أخلَّ به المتكلم نسب ذلك منه إلى الخروج عن الفصاحة، ومثاله عند العرب قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن: «منبتك منبت طابت أرومته، وعزَّت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، ونبت زرعه، في أكرم موطن وأطيب معدِن».

وأنت لا تجد هذا النسق في كتاب الله تعالى لا في كثير منه ولا قليل. بل هو مرسل عن كل القيود التي ذكرنا، أما اتفاق فواصل بعض الآيات في الوزن والحروف فهو لا يسمى بذلك القدر سجعاً، ولعلّك تعثر فيه على مقاطع يتوالى فيها الكلام على وزن واحد مع اتفاق الفاصلة، غير أنه مما يعترض في الكلام اتفاقاً ولا يسمى سجعاً مقصوداً إليه، وإنما يقع مغموراً في الخطاب، كما يقول الإمام الباقلاني. ألا ترى أنك قد تعثر في بعض آيات القرآن على وزن سليم لمصراع من الشعر، وقد تظفر ببيت كامل فيه، كما قد تظفر بمثل ذلك في غير القرآن من سائر أنواع النثر، غير أن أحداً من الناس لا يسمي ذلك شعراً، ولقد قال العلماء إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً، وإنما أقل الشعر بيتان فصاعداً، فمثل ذلك يقال عن السجع أيضاً[1].

الخاصّة الثانية (جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات):

فإذا تجاوزنا هذه الخاصّة من خصائص الأسلوب القرآني، وقفنا على خاصّة أخرى هي من الأهمية بمكان، وهي من أجلِّ مظاهر الإعجاز في القرآن

وهي أن التعبير القرآني يظلُّ جارياً على نسق رفيع واحد من السموّ في جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من

---

(١) راجع للوقوف على تفصيل هذا المبحث كتاب إعجاز القرآن للباقلاني: ص ٥٧.

التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد، وتلك حقيقة شاقّة بل لقد ظلّت مستحيلة على الزمن لدى جميع مَنْ عرفنا وسمعنا بهم من فحول علماء العربية والبيان.

وبيان ذلك، أن المعنى الذي يُراد عرصه، كلما كان أكثر عموماً وأغنى أمثلة وخصائص، كان التعبير عنه أيسر وكانت الألفاظ إليه أسرع، وكلما ضاق المعنى وتحدد ودقّ وتعمق، كان التعبير عنه أشق وكانت الألفاظ من حوله أقل.

ولذا كان أكثر الميادين الفكرية التي يتسابق فيها أرباب الفصاحة والبيان هي ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء، وكان أقل هذه الميادين اهتماماً منهم وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم، وذلك هو السر في أنك قلّما تجد الشعر يقتحم شيئاً من هذه الميادين الخالية الأخرى.

ومهما رأيت بليغاً كامل البلاغة والبيان، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنىً من المعاني، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها.

غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة، وتقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع وأحكام الحلال والحرام، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان. وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شاخة إليها. ودونك فاقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف معانيه وموضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول ولتلمس برهانه عن تجربة ونظر.

الخاصّة الثالثة (صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم):

وثمة خاصّة ثالثة، لا تستطيع أن تجدها في غير هذا الكتاب العزيز.

وهي أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على

اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس متفاوت في المدارك والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلاً منهم من معناها بقدر ما يفهم، وأن كلاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه.

ولسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين، بل هو معنى واحد على كل حال، ولكن له سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنها جميعاً أسلوب الآية. فالعاميّ من الناس يفهم منه السطح القريب، والمثقف منهم يفهم مدىً معيناً من عمقه أيضاً والباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله.

وخذ إن شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن، ثم اعرضها على مسامع الصدر الأول من المسلمين، فإنهم يفهمون منها المعنى المراد كما هو في طورهم وعصرهم، ثم اعرضها على مسامع من بعدهم فإنهم يفهمون معناها كما تطور في زمنهم، على أن كلا الفهمين من المدلولات القريبة للآية، وليس من قبيل التكلّف أو تحميل اللفظ ما لا يحمل، ولكن الفهم الثاني كان مطوياً عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك.

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك، فلنعرض أمثلة منه:

من القبيل الأول قوله تعالى: ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بُروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾، فهذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى، فتعطي كلاً حسب طاقته وفهمه دون أن يكون أيّ تعارض بينهما.

فالعاميُّ من العرب يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء

إلى الأرض، وإنما غاير في التعبير بالنسبة لكلٍّ منهما، تنويعاً للفظ. وهو معنى صحيح تدل عليه الآية. والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدلّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سمّاها سراجاً، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه؛ وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة. أما الباحث المتخصص في شؤون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبّهها بالسراج بالنسبة له؛ وهو أيضاً معنىً صحيح تدل الآية عليه بلغتها وصياغتها، فأنت تقول: غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها، ولا تقول قبس منير، إذ ينبعث النور من حقيقته وداخله، بل تقول قبس مضيء.

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة، ولكنها ـ بأسلوبها العجيب ـ لا تخاطب الناس إلا بما يدركونه منها، كلاً حسب استعداده وطاقته الفكرية، وبذلك تكون الآية خطاباً مفيداً لأضراب الناس كلهم.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى: ﴿ والأرضَ بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾، يقرأ هذه الآية العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراه وهو الامتداد والانبساط، فيفهم من قوله «دحاها» معنى الانبساط والامتداد، وهو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوي القريب. ثم يقرؤها عالم الفلك أو المثقف العادي في هذا العصر، فيفهم من قوله: ﴿ دحاها ﴾ معنى الاستدارة والتكوير، وهو أيضاً فهم صحيح للكلمة، إذ هي تحمل في آنٍ واحد كلاً من معنى الاستدارة والانبساط، وهو أدق ما توصف به الأرض. ولقد استُعملت هذه الكلمة بكلا معنييها في هذه الأبيات لابن الرومي:

إن أنْس لم أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرُقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفّه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر[1]

---

(١) تشترك مادة داح ودحا في الدلالة على الاتساع والعظم والانبساط والاستدارة. قال في شرح =

ومن القبيل الثاني قوله تعالى: ﴿ والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا، فلا يعنيهم من فهمها إلا قوله: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، إذ كان ذلك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد إليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الإنسان وما في ذلك من نعمة الله عليه. فإذا قرؤوا الجملة التي تليها وهي: ويخلق ما لا تعلمون، تاهوا بين تأويل وتفسيرات مختلفة. ويقرؤها إنسان هذا العصر فلا يشك في أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الأخرى التي أُضيفت إلى الوسائل السابقة.

وهكذا تجد الآية خطاباً لأهل العصور المتتالية كلها، وليست خاصّة بقوم دون قوم أو جيل دون جيل آخر.

فإذا تأملت في هذه الخاصّة بعد تينك السابقتين، رأيت نفسك أمام الدليل القاطع على أن هذا الكتاب إنما هو كلام ربّ العالمين إلى الناس كلهم. وهيهات أن يقوى الطوق البشري على صياغة كلام يكون على قدر أفهام الناس المتفاوتة وعلومهم المختلفة، بحيث يشعر كل فريق أن الكلام إنما هو على قدر حاجته وفهمه.

الخاصّة الرابعة (ظاهرة التكرار للألفاظ والمعاني):

وقد كانت هذه الخاصة ولا تزال مجال بحث ودرس، وما أكثر ما ظنها بعض المستشرقين الأعاجم ثلمة يمكن التركيز عليها في نقد القرآن وإلحاق النقيصة به.

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان: أما أحدهما فتكرار بعض الألفاظ أو الجمل وأما الثاني فتكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار.

فالنوع الأول منه: يأتي على وجه التأكيد، ثم هو ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية أخرى كالتهويل، والإنذار، والتجسيم، والتصوير. وللتكرار أثر

= القاموس: واندلح بطنه عظم واسترسل، كاندلح واندحى ودحى، وبطن منداح: خارج مدور. وذكر في اللسان نحو ذلك. ويشبه أن تكون الكلمتان في أصلهما من مادة واحدة.

بالغ في تحقيق هذه الوجوه البلاغية في الكلام. غير أنه لا ينبغي أن يذهب بك الوهم إلى أن أيّ تكرار للكلمة أو الجملة يفي بهذا الغرض، وأنها وسيلة قريبة المنال لكل قادر على الكلام. فالتكرار الذي من شأنه أن يرفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة والسمو في التعبير، له قيود وحالات معينة لا ينبغي أن يتجاوزها، وليس أي تكرير في الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم؛ ولو ذهبنا نشرح الصور المحمودة لتكرار الكلام وقيود ذلك ـ ولو شرحاً يسيراً ـ لطال بنا البحث وخرجنا عمّا نحن بصدده، فارجع إليه إن شئت في مظانه وأماكنه[1].

وإذا سألت عن وجه العلاقة بين التكرار وهذه الصور البلاغية، فإن خير جواب على ذلك أن أضع فكرك وذوقك العربي أمام نماذج لهذا النوع من التكرار في هذا الكتاب المبين.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ الحاقّة ما الحاقّة، وما أدراك ما الحاقة، كذّبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿ سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر، لا تُبقي ولا تذر ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿ إنه فكّر وقدّر، فقُتل كيف قدر، ثم قُتل كيف قدر ﴾ ومن ذلك تكرار كلمة ﴿ أولئك ﴾ في قوله جلّ جلاله: ﴿ أولئك الذين كفروا وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار ﴾ وتكرار ﴿ ما أنت ﴾ في قوله: ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم وما أنت بمسمعٍ مَنْ في القبور ﴾.

وكلّ ما في القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة من هذا القبيل وعلى مثل هذا الإشراق، وما أحسبك سائلي بعد ذلك عن وجه الجمال أو التهويل أو التصوير في هذا التكرار إن كنت على شيء من السليقة العربية وذوقها.

وأما النوع الثاني منه: وهو تكرار المعنى، كتكرار بعض القصص والأخبار، فهو أيضاً ظاهرة بارزة في كتاب الله تعالى؛ ومردُّ ذلك إلى غرضين هامين: الغرض الأول إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير

---

(١) انظر في ذلك مثلاً مشكل القرآن لابن قتيبة، وإعجاز القرآن للباقلاني، والبرهان للزركشي.

والأسلوب. وفي بيان هذه الحكمة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يُحدث لهم ذكراً ﴾ (طه: ١١٣). قال الزركشي: وحقيقته ـ أي وحقيقة التصريف ـ إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشيةَ تناسي الأول لطول العهد به[1].

وهي من الطرائق التربوية التي سلكها هذا الكتاب المبين، ولنا إلى الحديث عنها عودة ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن خصائصه التربوية.

أما الغرض الثاني فهو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، وتصريف الكلام في ذلك، حتى يتجلى إعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه. وأنت تعلم أن هذا الكتاب إنما تنزَّل لتحقيق أمرين: أولهما إقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشَر، ثانيهما إلزامهم بالشريعة التي فيها. فلا بدّ فيه من الوسائل التي تفي بتحقيق السبيل إلى كلا الأمرين.

ومن هنا، كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لا بدّ أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب وطريقة التصوير والعرض، بل لا بدّ أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة.

ولنضرب لك مثالاً على هذا الذي نقول: إقرأ قصة نوح في سورة هود، وهي ما بين قوله تعالى: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ـ وقوله جلّ جلاله: تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك.. الآية، وهي في جملتها اثنتان وعشرون آية، ثم ارجع فاقرأ القصة نفسها في سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ١٥ ثم اقرأها في سورة نوح، ثم تأمل في النصوص الثلاثة وقارن بين أسلوب كلٍّ منها وطريقته في العرض والتصوير والجانب المعنوي الذي يرتكز عليه التعبير في كلٍّ منها، فإنك إن تأملت في ذلك جيداً تخيلت أنك إنما تقرأ في

---

(١) انظر البرهان: ٣ ـ ١٠.

كل مرة خبراً جديداً يشوقك أمره وتفجؤك أحداثه، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين.

على أن هذا الغرض يعود إلى ما ذكرناه من كون القرآن خطاباً للناس كلهم، ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول والخلاصة في الحديث، حتى ينصت إلى الأمر مفصلاً مطنباً، وفي الناس من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز، فاقتضى الأمر أن تتصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان. وقد اهتم الجاحظ بهذه الحكمة في التكرار القرآني أكثر من غيرها[1].

الخاصّة الخامسة (تداخل بحوثه وموضوعاته):

فأنت لا تجد فيه ما تجده في عامّة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب الموضوعات، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها. وإنما تجد عامّة موضوعاته وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها، وقد تجدها متمازجة متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات.

وقد حسب بعض محترفي الغزو الفكري أن هذه الخاصّة القرآنية ثلمة يمكن الدخول منها إلى اصطناع نقد أو محاولة تهديم أو بثّ تشكيك، فأخذوا يتساءلون عن موجب هذا التداخل والتمازج في معاني القرآن، ثم راحوا يجيبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائية والبساطة في منهج البحث.. وفيه إلماح ـ كما ترى ـ إلى أنه لا يعدو كونه مجموعة أفكار منتثرة أنتجها فكر إنسان!..

والحقيقة، أن هذه الخاصّة في القرآن، إنما هي مظهر من مظاهر تفرده واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف.. وواضح لكل ذي عينين أن هذا الكتاب ـ وهو كتاب عربي مبين ـ نسق غير معهود في منهجه وأسلوبه وتعبيره؛ ويدلّك على ذلك كل هذه الخصائص الذي ذكرناها وشرحنا طرفاً منها.

---

(١) انظر البرهان للزركشي: ٣ ـ ١٢، وإعجاز القرآن للرافعي: ٢٢١، وإعجاز القرآن للباقلاني: ص ١٠٦ و١٠٧.

هـــذا شيء..

وشيء آخر، هو أن من الخطأ في أصل النقد والبحث أن نحاكم القرآن في منهجه وأسلوبه، إلى ما تواضع عليه الناس اليوم، أو قبل هذا اليوم، أو إلى ما سيتواضعون عليه مع تطور الزمن ـ من طرائق البحث والتأليف وتنسيق المعايير.

فهذا الذي يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم إلى أبواب وفصول، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث والمعاني، ليس مردُّه إلى أمر إلزامي أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك، وإنما الأمر فيه تابع للأغراض المتعلقة به، وهو في جملته عُرْف يعتادونه وطور يمرون عليه ويجتازونه بعد حين إلى غيره. فما هي الحقيقة الثابتة التي تلزم كتاب الله تعالى بأن يسير في منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد وأن يتبع تنسيقهم الذي يضعون، أو أن تصنَّف أبحاثه ومعانيه حسب المنهج الذي يشاءون؟!. هذا إلى أن المناهج ـ كما قلنا ـ تتناسخ والأساليب تتطور.

على أن الخاصّة تابع لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآني كله، ذلك أن جملة ما في القرآن من مختلف المواضيع والمعاني الجزئية، إنما يدور جميعه على معنى كُلِّي واحد، هو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيداً لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه، وأن يستيقنوا ضآلة هذه الحياة بالنسبة لتلك، في كلٍّ من خيرها وشرّها وسعادتها وشقائها.

فالقرآن شأنه أن يبثّ هذا المعنى الكلي الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الأبحاث والموضوعات المختلفة من تشريع ووعد ووعيد وقصة وأمثلة ووصف؛ وإنما يتحقق ذلك بهذا النسق الذي جرى عليه من التداخل والتمازج في المعاني.

فهو حينما يبدأ بعرض قصة، لا يدعك تنسى ـ ولو في مرحلة من مراحلها ـ ذلك المعنى الكلّي الذي ذكرناه، فهو يمزجها بما ليس منها من تهديد أو وعد ووعيد أو نصيحة ووعظ، تحقيقاً للغرض الذي من أجله تُساق القصة،

وحفظاً للفكر أن يتشتت مع أجوائها وأحداثها فينسى مساقها الأصلي.

وهو حينما يشرح لك أحكاماً في العبادات أو المعاملات أو غيرها، يسلك بك أيضاً المنهج ذاته، فهو يحاذر أن تستغرق في التأمل بهذه الأحكام من حيث هي علم أو فن برأسه، كما قد يحصل مع من ينكبُّ على دراسة هذه الأحكام في الكتب العلمية الخاصّة بها، فيوصلها بآيات ليست منها، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الآخرة أو دليل على وجود الله وعظمته، ليتنبّه الفكر، ويظل مستيقظاً للحقيقة الكلية الكبرى التي تطوف بها جميع المعاني الأبحاث.

ولو أن القرآن اتبع في عرض معانيه، هذا الذي يسلكه الناس في تآليفهم وبحوثهم، فأفرد فصولاً خاصة لعرض الأحكام والتشريع، ثم ميّز فصلاً آخر للقصص، وجاء بفصل ثالث في وصف المغيبات كالجنة والنار، وهكذا.. ـ نقول: لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق هذا الغرض الذي ذكرناه، ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاساً لمعنى كلي واحد تشترك كلها في بثّه والتوجيه إليه. ولئن أمكن أن يتذكر القارىء ذلك في تمهيد أو فصل من الفصول، فلسرعان ما ينساه عندما يستغرق في قراءة أو دراسة الفصول الأخرى.

وإن هذا الذي نقول، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر في كتاب الله تعالى، ولكن في الناس من يقود عقله وراء غرض ما.. فيمضي يصطنع مشكلة، وهو بعقله الحرِّ يعلم أنها ليست بمشكلة، ولكن الغرض الذي يسعى إليه لا يدعه يحرّر عقله من الأسر فيمضي متوكلاً على الشيطان ليزعم أن الأبيض أسود، والموجود معدوم والشمس مظلمة.

هؤلاء الناس هم محترفو الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين أولاً، ثم هم أذنابهم وذيولهم الذين ينعقون بما لا يفقهون ثانياً.

وبعد، فهذه جملة خصائص الأسلوب القرآني، عرضناها عرضاً سريعاً، ابتغاء تصورها في إطار عام شامل. ولنا عود ـ إن شاء الله ـ بالتفصيل إلى كثير مما قد أجملناه خلال البحوث التالية.

إعجاز القرآن

تعريفه ، وجوهه ، دليله ، مظاهره

تمهيد لا بدّ منه:

الحديث عن إعجاز القرآن من أهم البحوث المتعلقة بالقرآن وآدابه وعلومه، وهو لبّها وجوهرها وأساسها وعمدتها.

ومع ذلك، فإنني أعلم أن كثيراً ممّن سيقرأ ما أكتبه في هذا البحث، لا يملكون إلا أن يحفظوا ما أقوله بعقولهم، دون أن يتذوقوه بقلوبهم، ويستيقنوه بأفكارهم.

والسبب أنهم عاشوا غرباء عن القرآن، لم تتهيأ لهم أسباب قراءته ولم يتوفروا على شيء من دراسته؛ إن في هؤلاء ـ ويا للأسف ـ من لم يسمع بالقرآن إلا في أحاديث الناس وما تقوله الكتب، ومن لم ينصت إلى شيء من آياته إلا في أمسيات التعازي أو عند افتتاح حفل أو لدى مصادفة عند فتح إذاعة.

وإنما يفقه الحديثَ عن إعجاز القرآن ويتذوقه، من درس القرآن قبل ذلك، فأتقن قراءته، تماماً كما كان يتقنها أطفال «الكتّاب» في بلادنا قبل اليوم. فهو الذي يكون قد تصور حقيقة القرآن، وتهيأ لفهم الحديث عن إعجازه.

أما من لم يتوفر على تصوره إلا في أصوات «المقرئين» وفي أمسيات التعازي، ومن إذا أراد أن يقرأ بضع آيات منه تلعثم وترطّن وثقلت كلماتها العربية على لسانه، فهيهات أن يفقه شيئاً عن إعجاز القرآن ومظاهره ودلائله، إلا أن يحفظ ذلك حفظاً ويبصمه بصماً. ذلك لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فمن لم يتصور الشيء على حقيقته عجز عن إسناد أي حكم إليه.

ولقد قامت «ويا للأسف» حواجز كادت أن تصبح حصينة بين كثير من أفراد نشئنا المثقف وهذا الكتاب العظيم. ولم يعد سرّاً خافياً أن هذا الحاجز إنما تكثف واستقرّ وتطاول، بفعل التخطيط الذي كانت ولا تزال تقوم به دوائر أجنبية، قصداً إلى إضعاف اللغة العربية في ألسنة أصحابها العرب وصدورهم، تحت شعارات وأهداف مزوّقة خادعة، كالدعوة إلى تبسيط قواعد العربية تارة، وترويج فكرة الجمع بين العربية والعاميّة أخرى، والدعوة إلى كسر عمود الشعر لإحلال ما يسمى بـ «الشعر المنثور» مكانه تارة ثالثة.

والقصد البعيد من ذلك كله، هو إقامة هذا الحاجز بين الجيل وكتاب الله عزّ وجلّ، فإنه إذا حجز عنه، لم يعُدْ يقدر على معرفته وإدراكه، وإذا لم يعد قادراً على معرفته، فأحْرِ به أن لا يقدر على فهم شيء مما يقال حول إعجازه. وإن هذه النتيجة لتنطوي على ربح عظيم لأولئك الذين يرقبون الأمر من بعيد، بمقدار ما تنطوي عليه من الخسارة الفادحة لهذا الجيل الذي نسي الكثيرون منه كل شيء إلا أنهم: عرب[1].

وعلى كلٍّ، فلا بدّ من الحديث عن إعجاز القرآن، وعلى من لم يتصور حقيقة القرآن بعد، أن يسرع فيتدارك ما فاته، وسيهون الأمر عليه إذا ما تصور أن أول زاد الأديب ومعلّم العربية إنما هو هذا الكتاب، فهو ـ من دون معرفته وإتقان تلاوته ـ لا يملك أن يقول شيئاً في باب الأدب أو القواعد أو البيان، وما أخزى وأسوأ منظر ذاك الذي يقف ليلقي درساً في العربية، فإذا ما صادفته آية من القرآن، وجدت لسانه لا يدور بها إلا كما يدور لسان الأعجمي إذا أراد أن يبين بالعربية ويتفصح!!..

ولست أتحدث ـ في هذا المقام ـ عن أي غاية لضرورة دراسة هذا الكتاب وإتقان تلاوته، غير الغاية التي نحن بصددها. إن المهم أن عالم العربية ليس عالماً بشيء منها طالما ظل غريباً عن ينبوع العربية ومصدر سائر علومها.

---

(١) اقرأ لتطلع على بسط الدلائل في هذا المعنى كتاب «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين إن عثرت عليه. واقرأ كتاب تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث لمؤلف هذا الكتاب.

وحسب هذه الضرورة دافعاً لكل عربي أن يقبل على هذا الكتاب في دراسة واعية عميقة.

تعريف إعجاز القرآن:

أجمع عامّة الباحثين من علماء العربية والتشريع والفلسفة والفِرَق المختلفة أن القرآن مُعجِز. فما معنى أنه معجِز؟

لدينا في الجواب على هذا السؤال تعريفان للإعجاز، أحدهما هو المعتمد لدى جمهور العلماء والباحثين، والثاني تفرد به أبو إسحاق إبراهيم النظام (ت: ٢٣١) اللغوي والمعتزلي المعروف، ثم تبعه في ذلك بعض الناس من فرقته وجماعته.

فأما التعريف الأول، فهو أن القرآن قد سما في علوِّه إلى شأوٍ بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله؛ سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيباته.

وأما التعريف الثاني فهو أن الله قد صرف قدرات عباده وسلب هِمَمهم وحبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله.

والفرق بين التعريفين، أن مصدر الإعجاز في التعريف الأول علوّ منزلة القرآن عن مستوى الطوق البشري، أما مصدره في التعريف الثاني فهو حبس القدرات وصرف الهِمم عن معارضته وتقليده، أي فهو قد يكون، والحالة هذه، غير بعيد في منزلته البلاغية عن طاقة البشر، ولكن الله، تصديقاً لنبيّه ولطفاً به، صرف الناس عن تقليده ومحاكاته.

وأنت إذا تأملت في كلا التعريفين وفي الذي هو أقرب إلى العقل والفهم منهما، أدركت أن تعريف النظّام ومن شايعه فيه، لا معتمد من المنطق أو العقل له. وقد سخر كثير من الباحثين، ومنهم الجاحظ، بهذا التفسير للإعجاز؛ وتكاثرت الردود عليه من كل صوب.

ولننقل لك منها كلام الإمام الباقلاني في كتابه، إعجاز القرآن يقول:

(.. لو لم يكن القرآن معجِزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حُطَّ من رتبة البلاغة فيه، ووُضع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صُرفوا عن الإتيان بمثله، ومُنعوا عن معارضته وعُدِلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب. على أنهم لو كانوا صرفوا على ما ادّعاه ـ أي القائل بهذا التعريف ـ لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمّا كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنه لم يُتَحَدُّوا إليه، ولم تلزمهم حجته. فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان).

ثم يقول بعد ذلك:

(ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـ وإنما مَنَع منها الصرفة ـ لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه، وليس هذا بأعجب مما لو قيل: إن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه بعد)[1].

أقول: وإن أيسر ما يوضح فساد تفسير إعجاز القرآن بالصرفة، أن الواقع قد خالف ذلك، فلم يصرف الناس في الحقيقة عن الإقبال إلى تقليده ومجاراته، بل قام في التاريخ ـ كما ستعلم ـ من حاول أن يعارض، وعارض وأتى بكلام زعم أنه قد حاكى به كلام الله عزّ وجلّ، ولكنه جاء مرذولاً سمجاً لا قيمة له. وأيضاً ففيم سجد العرب من مشركين ومسلمين إذاً لبلاغته حتى زعم بعضهم أنه السحر، وفيم كان المشركون يتواصون بعدم الذهاب إلى الكعبة في جنح الليل لسماع القرآن من محمد عليه الصلاة والسلام حتى لا يفتن بذلك الدهماء عن دين أجدادهم، ثم ما هو إلا أن يتوارد هؤلاء المتواصون مع الليل، يختبئون خلف جدران الكعبة ليترنموا بسماع آيات القرآن؟.. لو كان القرآن في

---

(١) إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني: ٢٩ و٣٠.

حقيقته كالكلام الذي يحسنه البشر، ولكن الله صرفهم عن مجاراته ومحاكاته، لما وقع كل ذلك ولا شيء منه.

ومع ذلك فإن تفسير إعجاز القرآن، كما يراه النظّام، هو في الحقيقة أقعد في باب الإعجاز وأدعى إلى معرفة أنه كلام الله عزّ وجلّ، إذ العجز عن الإتيان بالشيء المستطاع أعجب من العجز عن الإتيان بالأمر الرفيع الذي لا يدرك ولا يستطاع. ولكن المنطق هو الذي يتجافى عن رأيه وتحليله.

الدليل على ثبوت الإعجاز في كتاب الله في الجملة:

ونقصد بكلمة «في الجملة» قطع النظر عن أنواع الإعجاز القرآني، والأدلة التفصيلية الخاصة بكلٍّ منها. وإنما المراد هنا الوقوف على دليل علمي يصلح أن يكون برهاناً على ثبوت المعنى الكلّي للإعجاز في القرآن، والشامل إجمالاً للأنواع التي سنتحدث عن كلٍّ منها بشيء من التفصيل فيما بعد.

واعلم أنك مهما حاولت أن تكشف عن براهين الإعجاز، في القرآن، فلن تقع على برهان أبين وألزم من برهان التجربة والمشاهدة. وهو الذي عناه الخطابي في كتابه «بيان إعجاز القرآن» عندما قال:

«.. والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه»[1].

وبيان ذلك أن العرب بدأوا فسألوا محمداً ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته ورسالته. فأخبرهم الله تعالى بأن القرآن أعظم آية تدل على ما يريدون، وذلك في قوله جلّ جلاله:

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه. قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم أن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (العنكبوت: ٥٠ و٥١).

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١، طبع دار المعارف.

ولكن الكافرين أنكروا أن يكون في شيء من آيِ القرآن ما يدلّ على صدق محمد ﷺ في دعوته، وادّعوا أنه كتاب كغيره ليس فيه ما يعجز عن الإتيان بمثله، وأعرضوا عنه قائلين ما نقله الله عن لسانهم:

﴿ . . قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ (الأنفال: ٣١)، وحينئذ تحدّاهم الله ـ أو قل تحدّاهم القرآن إن شئت ـ أن يأتوا بسورة من مثله. وأفرغ هذا التحدي في قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب، وأنهضهم إلى الإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، بالتقريع والتحميس ومختلف أشكال التحدي فقال لهم مرة:

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ﴾ (البقرة: ٢٣ و٢٤).

وقال لهم مره أخرى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقال لهم مهيجاً ومقرعاً: ﴿ أم يقولون تقوله، بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (الطور: ٢٣ و٢٤).

وقد كان من مقتضى قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وما سمعوه من هذا التقريع والتحدي وما كان يعتلج في صدورهم من الحقد والكراهية لهذا الذي جاءهم، النبي ﷺ، وما كانوا منصرفين إليه من البحث الدائب عن أيّ وسيلة يمكن الاعتماد عليها، لإفساد أمره عليه ومنع دعوته من السير في طريق النجاح ـ نقول: كان من مقتضى ذلك كله أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته بفصول من كلامهم البليغ، ليقطعوا بذلك خطره عنهم وليعلنوا بذلك لمن قد يتحدث بهذا الذي يأتيهم به من القرآن، أنهم قد جاءوا بمثله وخير منه.

ولكنهم ـ على الرغم من كل هذا ـ لم يفعلوا شيئاً، ولم يستجيبوا لتحدي القرآن الكريم في محاولة ما، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق: لو نشاء لقلنا

مثل هذا، إلى زعم أن محمداً إنما يأتيهم بسحر.. أو كهانة.. أو شعر فريد في بابه، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون ﴾ (الزخرف: ٣٠).

ثم إن آيات التحدي هذه ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى تقرع آذان العلماء والأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نِحَلِهم ومذاهبهم في كل عصر وقرن. فما استطاع واحد فيهم أن يسجّل إلى جانب هذا التحدي عملاً ما يصلح أن يقال إنه قد عارض به القرآن فأتى بشيء حسن.

فهذا الواقع، من أجلى أدلة التجربة والمشاهدة على ثبوت صنعة الإعجاز للقرآن. إذ هو دلالة الواقع نفسه خلال التاريخ والقرون.

على أننا ندعم هذا البرهان بميزان الاستقراء التام الدّال على أن القرآن لا يمكن أن يكون كلام غير الله عزّ وجلّ فنقول:

إن عجز العرب كلهم عن الإتيان بمثل القرآن، دليل جليّ على أنه لا يمكن أن يكون من تأليف أحد منهم كورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، أو غيرهما.. إذ إن الاحتمال مخالف لبرهان العجز الذي دلّت عليه التجربة المشاهدة، على أن القرآن فيه تعليق على أحداث وقعت بعد موت ورقة وبحيرة، فكيف يكون مع ذلك من إيحائهما أو تأليفهما.

ونمضي في الاستقراء والبحث، فنفرض أنه موحى به إليه ﷺ من قبل الجن ما دام أن الدليل قام على أنه ليس من كلام انبشر.

غير أن هذا الفرض أيضاً يستلزم نتائج باطلة تكشف عن بطلانه. فالجان الذي يفرض أنه أوحى إلى محمد ﷺ بهذه الألفاظ، لا يوحي بها إليه إلا وهي مما يقدر الجن على إيجاد مثله. وليس ممكناً أبداً أن لا يقوم في وجه هذا المخلوق الجنيّ أحد من أمثاله، يوحي بقرآن مثله خلال هذه القرون كلها إلى واحد من هؤلاء الناس الذين يشتهون أن يؤلفوا مثله، فلا يستطيعون هذا مع العلم بأن الله تعالى، كما تحدى بالقرآن الإنس، تحدى به الجن أيضاً، فقال عزّ وجلّ:

﴿ وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ (الشعراء: ٢١٢).

وكما يوجد في الإنس من يحقدون على الحق مع العلم بأنه الحق، فيتمنّون لو أمكنهم إفساد صفة الإعجاز في القرآن بأيّ وسيلة ممكنة، كذلك يوجد في الجن من يحقدون مثل هذا الحقد، ويتمنّون مثل هذا التمنّي.

فلما لم نرَ إنساناً أوحى إليه من قبل أحد الجان بمثل القرآن، أو بمثل بعض منه، علمنا بدليل الواقع المشاهد أنه ليس من تأليف الجان ولا من إيحائهم.

وهكذا يتكامل دليل الاستقراء التام على أن هذا القرآن الذي تنزل على محمد ﷺ، ليس من تأليف أحد من الناس الذين كانوا في عصره، وليس من تأليف جني نفثه في روعه أو ألقى به إليه.

فانحصر العقل عند ضرورة الإيمان بما يقوله ويقرره هذا القرآن نفسه، من أنه ليس إلا كلام الله عزّ وجلّ نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ ليكون خاتمة المنذرين إلى العالم كله وهو ما يؤكده البيان الإلهي بقوله عزّ وجلّ:

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون ﴾ (هود: ١٤).

ثم إن من أهم ما يزيد هذا البرهان التجريبي المحسوس والمشاهد، جلاءً ويقيناً، ما قد تعلمه من أن قلة من الناس حاولوا فعلاً أن يأتوا بشيء من مثل القرآن في بلاغته ومضمونه، فقد كانوا يأنسون في أنفسهم من القدرة ما يجعلهم أهلاً لهذه المغامرة. لكنهم ما إن أقدموا على ذلك حتى نزلوا عن المستوى الذي كانوا يقدرون عليه، وجاءوا بكلام بارد مضحك يسخر بعضه من بعض.

فمنهم مسيلمة بن حبيب الكذاب الذي تنبأ باليمامة في أواخر حياة النبي ﷺ فقد زعم أن له قرآناً آخر يوحى به إليه. وقد نقلوا له من قرآنه هذا كلاماً سخيفاً في كلٍّ من مبناه ومعناه.

وقد كان مسيلمة من فصحاء العرب، وكان إذا تكلم على سجيته جاء بكلام جيد، لا يوزن بشيء من السخف الذي انحطّ إليه عندما حاول تقليد القرآن ومعارضته.

ومنهم آخرون، جاءوا مع فترات متقطة من التاريخ، توفر لديهم حبّ المغامرة، وآنسوا في ملكاتهم القدرة على معارضة القرآن. ولكنهم حذروا الفضيحة والسخرية ـ على ما يبدو ـ وخافوا أن ينتهي أمرهم إلى مثل ما انتهى إليه أمر مسيلمة. فأخذوا يعارضون بعضاً من سور القرآن على تكتم وفي نجوة من الناس، ثم إنهم لما عادوا إليه بالنظر والتأمل، فوجدوه غثاءً لا قيمة له، وكلاماً لا طعم فيه رأوا أن يخرجوا به على الناس بعد أن يلصقوه بمن خطر في بالهم من مشاهير الأدباء والكاتبين.

من هذا القبيل ما نسب إلى ابن المقفع من أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم أقصر عن ذلك وتركه. وأغلب الظن أن الأمر إنما أُلصق به إلصاقاً على النحو الذي ذكرت.

ويقول الرافعي رحمه الله، معللاً اختيار هؤلاء المجهولين لابن المقفع دون غيره: «وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس، لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت من بعده وكان البلغاء كافة لا يمترون في إعجاز القرآن وإن اختلفوا في وجه إعجازه، ثم كان ابن المقفع متهماً عند الناس في دينه، فدفع بعض ذلك إلى بعض وتهيأت النسبة من الجملة»[1].

ومن هذا القبيل أيضاً كلمات نسبت إلى أبي العلاء المعري، قيل إنه عارض بها القرآن. ونسبوا إليه من ذلك فيما نسبوا قوله:

(أُقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل، إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لكفوف الذيل، تعدّ مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج وما أخالك بناجٍ).

---

(١) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ٢/١٨٣.

قالوا: ولما أن قيل له: إن كلامك هذا لا يبدو فيه شيء من رواء القرآن وإشراقه، أجابهم: دعوه تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة، ثم انظروا كيف يكون.

وما من باحث، بل ما من متأمل عاقل، إلا ويدرك براءة المعري من هذا الهراء، ومن هذه الطريقة الغبية في الدفاع عن هذا الكلام، لأسباب من أهمها:

أولاً : إن المعري لم يكن من الجهل بالواقع والتاريخ إلى حيث جعله يتوهم بأن الذين سجدوا لبلاغة القرآن، من العرب المشركين والمسلمين، لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن صقلت تلك الآيات أسماعهم أربعمائة سنة...

ثانياً : إن الرجل عرض في كتابه، رسالة الغفران، لسخف جاء به ابن الراوندي في كتاب له سمّاه «التاج» وهو سخف يشبه هذا الذي ألصقوه بأبي العلاء مما نحن في معرض حديثه، فتناول تاجه.هذا، ومزقه بلسانه وقلمه شرّ ممزّق

ثم تحدّث عن القرن حديث العاقل الذي يكرم نفسه من حيث يوقفها عند حدّها. ويؤكد أن لا مطمع لأي معارضة أو تقليد لهذا الكتاب، لأي إنسان مهما سما في قدراته وطاقاته العلمية والبلاغيه. وهذا كلامه عن ذلك في رسالة الغفران:

(.. وأما ابن الراوندي، فلم يكن إلى المصلحة بمهدي، وأما «تاجه» فلا يصلح أن يكون نعلاً، ولم يجد من عذاب وعلا (أي ملجأ).. ويجوز أن ينظم تاجه عقارب، فما كان المحسن ولا المقارب.. وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة: أف وتف، وجورب وخوف. قيل وما جورب وخف؟؟.. قالت: واديان في جهنم) إلى أن قال: (وأجمع ملحد ومهتد وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذي على مقال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز

من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة دوي الإرب، وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمسرّة والبائحة ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾. وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كَلِم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق فتبارك الله أحسن الخالقين»[1].

أفيمكن، فيما قد يتصوره عقل عاقل، أن يجرد المعري هذه السياط الملهبة على ظهر ابن الراوندي، ثم يعمد فيضع هو أيضاً ظهره تحت لهيبها؟

لا شك أن الأمر في حقيقته كما قلنا كما قلنا، أن مجهولين غامروا، فخابت جهودهم، فألصقوا خيبتهم بمن قد أحبّوا أن يلصقوها به من مشاهير العلماء أو الأدباء.

فهذا هو الدليل المادي الملموس على أن هذا القرآن قد أعجز البشر أن يأتوا بمثله.. إذ قد تبين أن الناس ـ منذ نزول القرآن إلى هذا اليوم ـ فريقان اثنان:

فريق أعلن عجزه عن إمكان الإتيان بمثله أو بما يدانيه، دون سابق تجربة ومحاولة

وفريق جرّب وحاول، وبذل كل ما يملك من جهد، فلم يأتِ من عمله بشيء.

ومن خلال موقف كلا هذين الفريقين اللذين انقسم إليهما جميع الناس إلى هذا اليوم، يتكامل الدليل العملي على ثبوت صفة الإعجاز في القرآن.

وإنما يعرف الدليل على إعجازه من هذا الوجه فقط، سواء عرفت وجوهه وأسبابه أو لم تعرف.

إلا أننا سنحاول الآن ترسيخ هذا الدليل، عن طريق تحليل هذه الظاهرة

---

(١) رسالة الغفران: ٤٧٩ و٤٨٠.

الإعجازية التي تتجلى في هذا الكتاب العظيم. وعن طريق الكشف عن وجوه هذا الإعجاز وأسبابه.

وفي يقيني أن العلماء يملكون مزيداً من وسائل الكشف عن هذه الوجوه وأسباب تجليتها، كلما تطاول الزمن، وازداد عمر القرآن طولاً بين الناس، إذ إن ذلك هو شأن المعجزة المستمرة والباقية مدى الدهر.

وجـــوه الإعجاز القرآني

لن نطيل القول في بيان الخلاف الذي جرى بين علماء القرآن، حول حقيقة الأعجاز الثابتة في كتاب الله تعالى، بعد أن تكامل إجماعهم واتفقت كلمتهم على أن سمة الإعجاز حقيقة ثابتة في هذا الكتاب، بقطع النظر عن جوانبه ومظاهره.

فإن فيما سنعرضه من بيان هذه الوجوه والجوانب، وتحليل كلٍّ منها وإبراز الأدلة والبراهين عليها، بالقدر الذي يتّسع له مجال مثل هذا البحث، ما يقضي على أسباب ذلك الخلاف، ويجلي لنا معظم هذه الوجوه، على نحو لا تلحقه المرية ولا يطوله الشك.

ونقول: يجلي لنا معظم هذه الوجوه. ولا نقول: يجلي كلها. لأنّا لا نعلم ما الذي تحمله قوادم الأيام والعصور، ومستجدات الأفكار والعلوم، من أضواء على مزيد من وجوه الإعجاز في كتاب الله عزّ وجلّ، كيف لا وهو الكتاب الذي ضمنه الله تعالى معجزته الساطعة الباقية على مرّ الأجيال والدهور. بل كيف وهو القائل في محكم هذا التبيين:

﴿ سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (فصّلت: ٥٣).

ولنشرع الآن ببيان وجوه الإعجاز في القرآن، مع شرح مفصّل لكلٍّ منها، بحيث تظهر من خلاله الحجة على أن القرآن معجز فعلاً من ذلك الوجه:

أولاً: الإعجاز اللفظي أو البلاغي:

وإنما نقصد بهذا الوجه بديع نظمه، وعجيب تأليفه[1] وسموّه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثله. وأنت تعلم أن البلاغة إنما تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال ودقة اللفظ في انطباقه على المعنى المراد. والإنسان مهما أوتي من القدرة البيانية لا يستطيع أن يسمو إلى ذروة هذه الغاية للأسباب والعوائق التي سنتحدث عنها إن شاء الله.

واعلم أن إعجاز القرآن من هذا الوجه حجة ـ بشكل مباشر ـ على العرب وحدهم، لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه. إلا أن العرب حجة، بدورهم، على سائر الناس، لأنهم إذا رأوا أن أرباب هذه اللغة وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن إنشاء مثله، أدركوا أنه معجز وأنه ليس مما يقدر عليه البشر[2].

مصدر الإعجاز البلاغي في القرآن:

وقبل أن نتحدث عن مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن، يجدر بنا أن نبين في كلمة جامعة أساس الإعجاز البلاغي ومصدره، في هذا الكتاب العظيم. فإن هذه المظاهر التي سنتحدث عنها جذوراً تنتهي إلى أساس واحد، إليه يردّ علم كل فرع وجانب تفصيلي.

ولعلّ أقصر طريق يمكن أن ينفذ منه الباحث إلى هذا المصدر أو الأساس الواحد، أن نتأمل فيما يملكه الإنسان ـ بمعناه الكلي ـ من الطاقة التعبيرية عن الأفكار والمعاني، وأن نبين من وراء ذلك الثغرات والنقائص التي تتلبس بطاقته هذه وتمنعه عن القدرة على التعبير عن كل ما يريد بالشكل الذي يريد.. فإذا تبينت لنا هذه النقائص والثغرات، أدركنا عندئذ أن أساس الإعجاز البلاغي في القرآن، إنما هو كونه مبرءاً من تلك النقائص والثغرات.

---

(١) نقصد بالتأليف هنا تآلف ألفاظه وجمله وتناسقها مع بعضها، على الوجه الذي سنشرحه فيما بعد إن شاء الله.

(٢) انظر ما كتبه في هذا الإمام الباقلاني في إعجاز القرآن ص: ٢٥٩ والإمام السيوطي في الإتقان ٢/١١٩.

ولقد قلنا إن مردَّ البلاغة الكلامية إلى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى. وإنما سبيل ذلك أن يتسارع إلى الذهن جميع ألفاظ هذه اللغة وما يسمى بمترادفاتها لينتقي منها ألصقها بالمعنى المراد والصورة المتخيلة. فبمقدار ما يتم التوافق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدّال عليه والمصوّر له، يتسامى الكلام في درجات البلاغة والبيان.

ولكن هل يتسنى للإنسان أن يحقق هذا التوافق بمعناه الكلي الدقيق؟

لن يتسنى للإنسان أيّاً كان، تحقيق هذا الهدف مهما بذل من تحايل أو جهد، وذلك لسببين اثنين:

أولهما : أن المعاني والتصورات أغزر من الألفاظ وقوالب التعبير. ذلك لأن المعاني والأفكار والتصورات إنما تنبعث من داخل النفس الإنسانية، وهي منبع ثرٌّ لا يكاد ينضب لمختلف المعاني والتصورات والمشاعر. أما الألفاظ والتعابير فإنما تقبل إلى الإنسان من الخارج، وهي بالإضافة إلى ذلك محصورة ومتناهية. لذا كان من المتفق عليه أن اللغة ـ مهما كان نوعها ـ لا تغطي إلا جزءاً يسيراً من المعاني والمشاعر.

ألا ترى أن كلمة (الألم) تستعمل للدلالة على أنواع شتى من المشاعر والأحاسيس والمعاني، دون أن تنجدك اللغة بأي دلالات لفظية يمكن أن تستعمل للتفريق بين تلك الأنواع، وإنما أنت منها أمام هذه الكلمة أو ما قد يشبهها: (الألم)؟

وإن أحدنا ليستعمل كلمة (الجمال) عن عالم واسع من المشاعر والصور والمعاني، وهو يعلم أنها صور ومعانٍ متنوعة متخالفة، وإن من الجدير أن يلقى الإنسان لكلٍّ منها تعبيراً مستقلاً. ولكن أحدنا لا يملك مع ذلك أن يعبّر عن هذه الصور والمعاني المتخالفة بأكثر من كلمة (الجمال) ومشتقاتها.

وكذلك شأن أكثر كلمات اللغة، ما من واحدة منها إلا

وتستعمل لطائفة من المعاني المتغايرة وإنما القاسم المشترك بينها علاقات سطحية تصل ما بينها. فأنت لا تملك من اللغة إلا ما يعبّر عن هذه المعاني السطحية القريبة، بحيث إذا أردت الغوص على دقائق المعاني المتشعبة تخلفت عنك طاقة التعبير وبقيت مع مشاعرك الصامتة[1].

ثانيهما : أننا نقف من اللغة العربية أمام بحر عظيم من الكلمات والألفاظ ـ على ما فيها من القصور الذي ذكرناه ـ. ومعظم هذه الألفاظ مما يسمى بالمترادف. ومهما كان الكاتب أو المتكلم بليغاً، ومهما كان يحفظ في ذهنه من متن اللغة وألفاظها ومترادفاتها، فلا يمكن أن تنتصب هذه المترادفات جميعها مكشوفة واضحة أمام خياله، كما تنتصب مضارِب الأحرف من الآلة الكاتبة أمام ضاربها، لكي يلتقط من مجموعها ما هو أقرب إلى المعنى الذي يبغيه والشعور الذي يجول في صدره وإنما هو ـ عند التعبير ـ إنما يلقي حبال تفكيره إلى هذا اليم المتلاطم من الكلمات، ليلتقط منه ما قد يتسارع إليه ويسهل على لسانه. وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصوده.

بيد أن هذه الألفظا إنما تعدّ مترادفة، إذا ما أُريدت منها الدلالة الإجمالية على المعنى، وهي التي يقتنع بها العامة من المتكلمين، وهم الذين لا يطمعون في أكثر من إيصال خلاصة إحساساتهم وأفكارهم إلى الآخرين.

أما عند من يسبر أغوار هذه الكلمات ويستخرج ما يمتاز به كلٍّ منها من الخصائص والفروق، فهي ليست من المترادفات في شيء. بل لكلٍّ منها دلالته الخاصة وإشارته المتميزة وإيحاؤه الذي لا يشترك فيه غيره، وتصويره الذي ينفرد به عن سائر نظائره.

فقد تحسب مثلاً أن كلاًّ من مضى، وذهب، وانطلق، يؤدي معنىً

---

(١) انظر ما قاله السيوطي في المزهر حول هذا المعنى: ١/١٦٤ ط الممينية.

واحداً، وأن كلاً من: قعد، وجلس، شيء واحد في الدلالة، وأن كلاً من: نام، ورقد، وهجع، متّحد في المقصود ولكن الحقيقة ليست كذلك. ففي كل كلمة من هذه المترادفات وصف تستقل بالدلالة عليه، وإن كان جميعها متفقاً في الدلالة على أصل المعنى، بقطع النظر عن خصائص الفروق والأوصاف، كما يقول الإمام أحمد بن يحيى المعروف بثعلب.

وقد كان جمع من أهل اللغة في مجلس عند سيف الدولة، وفيهم أبو علي الفارسي، وابن خالويه. فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً. فتبسم أبو علي وقال: أما أنا فلا أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهنّد والصارم وكذا وكذا.. فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرّق بين الاسم والصفة.

فمن هنا تضيق السبل على من ينشد الدقة في التعبير والصدق في تصوير المعاني والمشاعر. إذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه، لما يختصّ به كلٌ منها من دلالة وصفة معينة، ولا يمكن أن يتمثل متن هذه اللغة كلها أمام عينيه، ليلتقط منها ما يأتي مفصّلاً على قدر مشاعره وأفكاره. وإنما هو يأخذ منها ـ كما قلنا ـ ما تبادر إلى ذاكرته وقرب إلى لسانه.

وعندئذ إما أن يقع في تطويل لا فائدة منه، وإما أن يجنح إلى اختصار مفسد مخلٍّ، وإما أن يقع في كلامه على ألفاظ وتعابير تفسد عليه تصوره وتشوش على السامع مقصوده. وإذا اتسعت أمامه السبل في التعبير عن بعض معانيه وأفكاره، ضاقت عليه السبل لدى محاولة التعبير بدقة عن المعاني الأخرى.

وما كاتب من الكتاب أو بليغ من البلغاء، ممّن سمعت بهم قديماً أو حديثاً، إلا وفيه هذه النقائص أو واحدة منها.

فمن أجل هذين السببين، يعاني الإنسان ـ مهما سَمَت درجته البلاغية وطاقته التعبيرية ـ من العجز، تجاه محاولته التعبير عن المعاني والمشاعر التي يريد التعبير عنها بدقة. ولا ريب أنه عجز متفاوت تبعاً لتفاوت القدرات البلاغية والتعبيرية، عند الناس. إلا أن العجز سمة ثابتة للجميع بمعناه الإجمالي.

فإذا تجلّت لك هذه الحقيقة، فلتعلم أن الإعجاز البلاغي في القرآن، ليس شيئاً أكثر من كونه متحرراً عن هاتين الظاهرتين اللتين يتجسد فيهما عجز الإنسان.

إقرأ ما شئت من سور القرآن وآياته، تجد أن كلاًّ من جانبي اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتمّ ما يكون الوفاق والتطابق. لا تشعر أن حرفاً واحداً يفيض في جانب اللفظ عن المعنى ولا تشعر أن أيّ جانب في المعنى ـ مهما دقّ ولطف ـ قد تقاصر اللفظ أو التعبير عن الدلالة عليه.

فهذا هو مصدر الإعجاز البلاغي في كتاب الله تعالى.

ولكن ما الدليل على أن القرآن قد تسامى على هاتين الظاهرتين اللتين يتجسد فيهما عجز الإنسان لدى محاولة تعبيره عن المعاني والأفكار؟

يتجلى الدليل على ذلك من خلال شرح (ولو يسير) لمظاهر الإعجاز البلاغي، وهذا ما سنبدأ به الآن:

المظهر الأول (الكلمة القرآنية):

إن للكملة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سَمَت في مدارج البلاغة والبيان.

فهي أولاً: تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه. ولا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التي تعاني من العجز الذي أوضحناه.

وهي ثانياً: تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد. فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسدّ مسدّها ولم يغنِ غناءها، ولم يؤدِ الصورة التي تؤديها[1].

---

(١) إنما يتجلى الإعجاز في الكلمة القرآنية، عندما تكون مستقرة في مكانها من الجملة القرآنية فلا ينطبق شيء مما سنقوله في هذا الصدد على الكلمات القرآنية إذا التقطتها خارج منازلها القرآنية كقواميس اللغة أو كلام الناس مثلاً.

ولك أن تسأل: ولكنك أوضحت آنفاً عجز اللغة عن التعبير عن جميع المعاني والمشاعر، فكيف يتأتى للقرآن أن يسخر كلماته لما وراء الحدود التي تقف عندها طاقة اللغة ذاتها، وهو إنما يستعمل في تعبيراته اللغة ليس إلا؟؟

والجواب: أن القرآن يتناول ـ كما سترى ـ من الكلمات المترادفة أدقها دلالة، وأتمها تصويراً بالنسبة إلى نظائرها. فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود اللغة، اتسعت لها الكلمة القرآنية وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع.

ولن تعثر مهما حاولت، على أي ضابط لهذا الجرس والوزن والإيقاع، مؤملاً أن تطبقه في كلامك وتعبيرك. إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارىء عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآني الفريد.

فأغطش مثلاً في قوله تعالى: ﴿ أغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ مساوٍ من حيث الدلالة اللغوية لأظلم. ولكن «أغطش» تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها الوزن وجرس الأحرف متآلفة مع بعضها. فالكلمة بهذه الدلالة تعبّر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ فيه الركود وتجلّت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولست بحاجة ـ لفهم هذه الصورة من الكلمة ـ إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس وإنما هو إحساس ينبعث في نفسك من طبيعة الكلمة ووقع حروفها.

وكذلك «سكنا» من قوله تعالى: ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ﴾ فهي من حيث الدلالة اللغوية مثل قولك: هدوءاً، طمأنينة.. ولكن المعنى الذي تبثه في شعورك الكلمة القرآنية، لا تجد شيئاً منه في غيرها مهما تساوى معها في أصل الدلالة اللغوية.

إن طبيعة الأحرف التي تتكون منها كلمة «سكناً» مع توالي الفتحات على حروفها، تشعِرك بذلك الهدوء الذي يبعث الطمأنينة وينشر الأمن والراحة في أنحاء النفس. دون أن تحتاج في ذلك إلى معرفة أي دلالة لغوية.

ثم حاول أن تحذف كلمة واحدة من كلمات هذه الآية، وأن تستبدل بها غيرها، مما يؤدي المعنى ذاته، مستعيناً باللغة وقواميسها، فلسوف ترى أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي بألفاظ مثلها أو خير منها في الدلالة على المعنى وتصوير الأحاسيس المطلوب تصويرها. ومهما غيّرت في الآية أفسدت من بهائها ونقصت من روعتها وإشراقها. ابحث عن أيّ كلمة تقوم مقام «فالق» في أداء المعنى وتصوير المراد وتجسيم الفكرة، أو ابحث عن أي كلمة أخرى تضعها موضع «الإصباح» في دلالتها على الحركة والانبثاق وبثّ الصورة المطلوبة، أو حاول أن تأتي بكلمة أخرى مكان «سكناً» أو بكلمة أخرى أدلّ وأخصر وأجمع من هذه الكلمة العجيبة «حسباناً» فإنك لن تملك من ذلك كله إلا إفساد الآية، وتشويه دلالتها.

وربما عجزت اللغة عن اللحاق بالصورة المحلقة التي يريد المتكلم أو الكاتب أن يبثّها في خيال السامع، فاضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلّق، لحاقاً بكلمة تقف دون الصورة التي يريدها، لا يجد في اللغة سواها، فيفسد بها الصورة كلها.

غير أن القرآن لا يعجزه أن تكون الكلمة دائماً في مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، فهو يصعد باللغة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة، ولا ينزل بالمعنى أو الصورة إليها في حال من الأحوال.

انظر حينما يصف البيان الإلهي دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي يتحدثن، منتقدات، عن مراودتها ليوسف عن نفسه، إلى جلسة رائعة مترفة في بيتها، لتطلعهنّ فيها على يوسف، فيعذرنها فيما أقدمت عليه.. لقد قدّمت لهنّ في ذلك المجلس طعاماً ولا ريب. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبّر عن ذلك بالطعام، وهو اللفظ الذي لا بدّ أن يعبّر به أو بنظيره أيّ واحد من الناس مهما امتلك ناصية البلاغة والبيان، لم يعبّر البيان الإلهي بهذه الكلمة لأنها إنما تصوّر شهوة الجائعين من حوله، وتنقل الفكر والخيال إلى (المطبخ) بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه.

فبماذا عبّر القرآن إذن؟.. وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام

ولا تمسّ الصورة بأي تعكير أو تشويه؟

لقد أبدع القرآن لذلك تعبيراً عجيباً رائعاً.. فانظر ماذا قال:

﴿ فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ واعتدت لهنّ متكأ.. ﴾ (يوسف: ٣١).

﴿ متكأ ﴾ كلمة قرآنية، تصور لك من الطعام ذلك النوع الذي لا يقدّم إلا ترفاً وتفكهاً وتجميلاً للمجلس وتوفيراً لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال إليه على حالة من الراحة والاتكاء. والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها واشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعد، ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون.

ونظراً إلى أن القرآن إنما تنزل خطاباً للناس جميعهم، على تفاوت ثقافاتهم، واختلاف عصورهم فإن الكلمة القرآنية تنطوي على دلالات متعددة، تستجيب للظروف كلها ولأحوال الناس كلهم، إذا كانت تلك الكلمة تتعلق بمعنى يختلف من عصر إلى آخر أو يتفاوت فهم الناس له، حسب تفاوت ثقافاتهم وعلومهم.

ومكان الغرابة والعجب، في هذه الكلمات، أن دلالاتها لا تتناقض على الرغم من اختلافها، ولا يشرد شيء منها عن قواعد اللغة ومقتضياتها، فهي تحتضن في وقت واحد هذه الدلالات، لتقدم إلى كل عصر أو فئة من الناس ما هو أقرب إلى مألوف ذلك العصر أو ثقافة أولئك الناس. وجميعها دلالات صادقة صحيحة لا تنسخ واحدة منها الأخرى.

وأنت لو حاولت أن تلتقط من اللغة كلمات مرنة غنية بهذا الشكل، لرأيت أن الأمر يحتاج إلى جهد عظيم لا يمكن أن ترقى إليه طاقة البشر. مهما أوتي من قوة الحفظ وسموّ البيان.

من الأمثلة على ذلك أن القرآن حدّثنا عن مظاهر نعم الله على عباده، ومن جملتها النار. فنبّهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا، وأوضح أنها متاع يُحتاج إليه في حالات السفر واجتياز القفار، ولتحضير الطعام، ولما وراء ذلك من أسباب

المتعه والرفاهية.. فكم هي الكلمات أو الجمل التي تتصور أنها وفَت بالتعبير عن هذه الفوائد كلها؟

إنها ليست أكثر من كلمة واحدة!..

واسمع في ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ أفرأيتم النار التي تُورُونَ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون. نحن جعلناها تذْكرة ومتاعاً للمُقْـوين ﴾ (الواقعة: ٧٢ و٧٣).

المُقْوين!.. هذه هي الكلمة التي تحمل المعاني كلها. فالمقوين جمع مقو، أي نازل في القواء (وهو المكان القفر) أو مجتاز بها، وعليه قول النابغة:

يـا دار ميـة بـالعليـاء فـالسّنـدِ   أقْوَتْ وطال عليها سالف الأمد

والمقوين أيضاً من القَوَي وهو الجوع، وعليه قول حاتم الطائي:

وإني لأختارُ القَوَى طاوِيَ الحشا   محـاذرةً مـن أن يـقـال لئيـمُ

والمقوين أيضاً جمع مقو، بمعنى مستمتع، كما قال مجاهـد(١) وعموم الاستمتاع في هذا المعنى الثالث، إنما يفسره الزمن وتطور الأحوال وتقدّم أسباب الحياة والعيش.

فهل يطيق بشر، كائناً مَن كان، أن يخضع اللغة لمقاصده هذا الإخضاع العجيب، فيحشد مثل هذه المعاني المتباعدة في كلمة واحدة، تأتي طوع قصده ومراده، بدون أي تمحّل أو تكلف أو تقعر؟!..

إن العقل لا يرتاب في أنها صنعة رب العالمين وكلامه.

ويتصل بهذا الذي نقول ما ذكرناه في الخاصة الثالثة من خصائص الأسلوب القرآني، وقد عرضنا في بيان ذلك لأمثلة كثيرة من القرآن، فارجع إليه إن شئت(٢).

---

(١) راجع مادة قوى في لسان العرب والقاموس المحيط. وانظر تفسير القرطبي: ١٧/٢٢١.
(٢) انظر ص ١١٠ من هذا الكتاب.

obeikandi.com

المظهر الثاني: الجملة القرآنية:

ويتلخص مظهر الإعجاز في الجملة القرآنية في الأمور الثلاثة التالية:

١ ـ الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي.
٢ ـ دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى.
٣ ـ إخراجها المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس.

فلنتناول كلاً من هذه الأمور الثلاثة ببيان موجز يتلاءم مع طبيعة هذا البحث.

أولاً: الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي:

لا بدّ أن تجد الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه، نسق جميل ينطوي على إيقاع خفي رائع، ما كان ليتم لو نقصت الجملة كلمة أو حرفاً أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

والقرآن كله مثال على هذه الحقيقة الجليّة. ولكن إذا كان لا بدّ من أمثلة ونماذج نعرضها فإليك هذه الأمثلة، واعلم أن الجمل القرآنية كلها جارية على منوالها:

اقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾[1] واقرأ قول الله تعالى: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾[2] وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها. ثم دقّق نظرك، وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها. ثم أمعن في تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها. فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صبّت من الكلمات والحروف

---

(١) القمر: ٣٦.
(٢) القمر: ١١ و١٢ و١٣ و١٤.

والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قدّر تقديراً بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقرى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة.

وعلى الرغم من أن القرآن لا ينضبط بشيء من أعاريض النظم وأوزانه المعروفة، إلا أنك تشعر مع ذلك بتوقيع موزون من تتابع كلماته، بحيث يؤلّف اجتماعها إلى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارىء العربي كيفما قرأ، إذا كانت قراءته صحيحة. كما تلاحظ لدى قراءتك لهذه الآيات.

ولعلّ من أبرز آثار هذه الظاهرة، أن حفظ القرآن غيباً أيسر على الإنسان من حفظ سائر أنواع النثر. ذلك لأنه منضبط بأوزان وإيقاعات خاصّة به، فيسهل بذلك حفظه والتنبّه إلى الخطأ الذي قد يقع القارىء فيه عندما يقرؤه غيباً. بل المعروف لدى من مارس حفظ القرآن أن الخطأ قلّما يقع في حفظه وضبطه إلا من وجه واحد، هو ما قد يكون بين الآيات من تشابه، فيأتي الخطأ من خلط آية بأخرى والوقوع في اللبس بينهما.

ثانياً: دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى:

وهذه ظاهرة جليّة تستطيع أن تتبينها في طريقة التعبير القرآني، مهما اختلفت بحوثه وموضوعاته لا تجد في الجملة القرآنية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، ولا تستطيع أن تترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلا في عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز والاختصار.

ولنستعرض طائفة من الأمثلة على ذلك، والقرآن كله، كما قلنا، مثال على هذه الحقيقة. حدّثنا القرآن عن الضمانات التي أعطاها لآدم بعد خلقه، مما يحتاجه الإنسان في حياته من كل ما يدخل في مقوّمات بقائه وعيشه. لقد وضع البيان الإلهي هذه الاحتياجات كلها في جملتين فقط وهما قوله عزّ وجلّ خطاباً لآدم:

﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ (طه: ١١٨ و١١٩)، فتأمل في هاتين الجملتين، وألفاظهما وكيفية صياغتهما وكيف أنهما جمعتا أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس

ومأوى. وانظر كيف عبّر عن تأمين حاجته إلى المسكن والمأوى بقوله: ولا تضحى.. أي لك أن لا تصيبك شمس الضحى أو يؤذيك لفحها بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك[1].

وانظر إلى هذه الآية وقد تضمنت حكماً من الأحكام الشرعية المهمة. وهي قوله تعالى: ﴿ وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحبّ الخائنين ﴾ (الأنفال: ٥٨). تأمل صياغة هذه الآية وطريقة دلالتها على المعنى الذي تعبّر عنه، تجد نفسك أمام أسلوب فريد ليس من دأب الإنسان أن يتأتى له التعبير بمثله.

وإليك ما يقوله ابن قتيبة وهو يحاول التعبير عن معنى هذه الآية بألفاظ عربية من عنده:

(ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿ وأما تخافن من قوم.. ﴾ الآية، لم تستطيع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت عليهم وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء)[2].

وحسبك أن تعلم أن الآيات المتضمنة لأحكام التشريع، قد لا تزيد على ثلاثمائة آية، إلا شيئاً يسيراً وهي لا تبلغ معشار النصوص الفقهية التي دوّنها الفقهاء فيما بعد، ولكن قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن من أبرز مظاهر الإعجاز في هذه الآيات أن الطريقة الفريدة في صياغة وتراكب جملها، تجعلها متسعة للدلالة على ذخر من المعاني الكثيرة التي لا يمكن التعبير عنها بطريقتنا المألوفة، إلا بواسطة مجلدات..

خذ على سبيل المثال هذه الآية:

---

(١) هذا إن اعتبرنا أنه كانت في الجنة شمس حينما أسكن الله آدم فيها، أما إن قلنا لم يكن ثمة شمس ولا ظل إذ ذاك، فقوله: ولا تضحى مجرد بيان بأنه لن يصيبه أذىً من حرٍّ لافح.

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ١٦.

﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حَولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، لا تكلف نفس إلا وسعها، لا تضارَّ والدةٌ بِوَلَدِها ولا مولودٌ له بولده، وعلى الوارث مثلُ ذلك. فإن أرادا فِصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما. وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

فهذه آية واحدة صيغت من ستة أسطر قرآنية، أي مما لا يزيد على ستين كلمة، وقد تضمنت ثلاثة وعشرين حكماً مما يتعلق بنظام الأسرة، لم يستخرج واحد منها تمحلاً ولا تكلفاً. بل هو بين أن تكون الآية دلّت عليه بصريح المنطوق أو بجلي المفهوم أو بمقتضى النص. وأنت لو رحت تحاول التعبير عن هذه الأحكام بصياغة جليّة دون اختصار مخلٍّ أو إطالة من غير لزوم، لاقتضى ذلك منك ما لا يقل عن خمسة وعشرين سطراً من الكلام أي خمسة أضعاف النص القرآني.

وانظر إلى أحكام الميراث في كتاب الله عزّ وجلّ، وتأمل كيف صيغت فيما لا يزيد عن ثلاثة عشر سطراً من أسطر القرآن، موزعة في آيتين. فلقد حَوَت هاتان الآيتان ـ في غير إخلال ولا تمحّل ـ أحوال الوارثين ونصيب كلٍّ منهم في كل حال من الأحوال. ولقد انبثق من هاتين الآيتين فن مستقل برأسه يمثّل شطراً كبيراً من أحكام الشريعة الإسلامية. وهو ما يسمى بعلم الميراث، وقد كتبت فيه مؤلفات مستقلة. وإنك لتعجب كيف اتّسع مضمون آيتين من القرآن لمدلولات كتاب برأسه.. ولكن انظر، وتأمل وقارن، فستجد أن هذا الذي تعجب منه حقيقة ثابتة.

ثالثاً: إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس:

ولكي يتجلى لك معنى الإعجاز في هذه المزية الثالثة التي تمتاز بها الجملة القرآنية، ينبغي أن نمهد لذلك بما يلي:

إن الذي أُوتي ملكة في الآداب والبلاغة العربية، لا يعدم أن يجد وسيلة

إلى تجسيد المعاني المجردة في كلامه وإخراجها في مظهر الأمر المحسوس. إلا أن هذه الوسيلة محصورة في استعمال الاستعارات والمجازات والتشبيهات. ولكل ذلك طرق محدودة لا مجال للخروج عليها. فهو يستطيع أن يصل بهذه الوسيلة إلى غايته التصويرية بمقدار وضمن حدود.

أما أن يجعل أحدنا من صياغة الجملة ذاتها ومن تآلف كلماتها مع بعض، مرآة يتجسد فيها المعنى المطلوب ويبرز محسوساً ومصوراً أمام خيال القارىء، فذلك ما لا سبيل للإنسان إليه. وتلك هي الطريقة الغالبة لتصوير المعاني وتجسيدها أمام المخيلة في كتاب الله عزّ وجلّ. فحتى عندما تجد الجملة القرآنية بعيدة عن استعمال المجاز والاستعارة والكنايات، ترى هذه الظاهرة بارزة متجلية في جمل القرآن وآياته.

ولن نطيل القول هنا في هذا الجانب الثالث فسنتناوله إن شاء الله بالتفصيل وذكر الأمثلة في مبحث التصوير في القرآن.

ثانياً: الإعجاز بالغيبيات:

ونقصد بالغيبيات تلك الإخبارات المتعلقة بأحداث مقبلة، والتي لم يظهرها بعد أيّ شاهد من العقل أو الحس أو الدلائل التي تعوّد الإنسان على الاعتماد عليها. سواء تعلقت هذه الأخبار بأحداث عامة، أو تعلقت بأناس أو فئات بأعيانهم، أو تعلقت بنواميس كونية.

ففي القرآن آيات كثيرة أخبرت عن أحداث ستقع في زمن مقبل، وفيه آيات تحدّثت عن مصائر أشخاص بأعيانهم، وفيه نصوص تقرر قوانين ثابتة بالنسبة لكثير من المظاهر الكونية المحيطة بنا. وقد جاء الزمن فيما بعد بمصداق هذه الأخبار كلها، دون أن يكون عليها أيّ شاهد من قبل، من حس أو عقل أو أيّ بيّنة من البيِّنات.

فمن النوع الأول قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ (الروم: ١ و٢).

ومن المعلوم كما رواه الترمذي وغيره، وكما هو ثابت في التاريخ أن الفرس انتصروا في معركة بقيادة «شربزان» على الروم، وذلك أيام كسرى. وكان المشركون يحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإيّاهم أهل أوثان. وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. فلما أنزل الله هذه الآية، وفيها إخبار كما ترى بأن الروم سيعودون فينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي في أقل من عشر سنين، خرج أبو بكر يصيح بها في نواحي مكة. فقال له: أناس من قريش، فذلك بيننا وبينكم، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى... وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع؟ ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فسمُّوا بينهم ست سنين، فمضت السنوات الست قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال: وأسلم عند ذلك كثيرون.. وفي رواية أخرى أنه لما مرّت السنوات الست ولم يظهر الروم. قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ارجع فزدهم في الرهان واستردهم في الأجل، ففعل أبو بكر: فغلبت الروم في أثناء الأجل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لقد صدق اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحق، لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ (الفتح: ٢٧).

ومعلوم أن هذه الآية نزلت في حالة لم يكن المسلمون يتوقعون أن يدخلوا فيها مكة لطواف أو غيره، فقد رأوا من المشركين صدّاً وعسفاً وإيذاء، ولكن العام الذي تلا تلك الحالة جاء فصدّق هذه الآية ولاحت للناس الحكمة من الصدّ والصلح، وتبين أن كل ذلك جاء مقدمة دقيقة وعجيبة بين يدي فتح مكة سلماً كما شاءه الله عزّ وجلّ. وهو ما أخبر الله عنه في آخر هذه الآية بقوله: ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾.

ولو وضعت الأمر في ميزان التقديرات الفكرية والمنطقية، عندما أنجز صلح الحديبية، لما رأيت أي دليل يمكن الاعتماد عليه، على أن ثمرة هذه الصلح سيكون فتح مكة عمّا قريب، وأيّ فتح؟ فتح سلمي لا تتناوش فيه السيوف، ولا يقع فيه قتال يذكر.

ومن النوع الثاني: آيات تحدّثت عن أشخاص بأعيانهم، أنبأت عن مصائرهم، وكشفت عن حكم الله المبرم في حقهم. من ذلك قول الله تعالى عن أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ: ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ إنك إذا تأملت هذه الآيات وما قد تضمنته من إخبار عن مستقبل هذا الرجل وما سيؤول إليه حاله، علمت أن أحداً من الناس لا يملك أن يطلق هذا الوعيد ويسجله في عنق الزمن وعلى صفحة الدهر. فما الذي يدري هذا الإنسان أن أبا لهب سيثبت على كفره إلى الموت، وما هي ضمانات أنه لن يؤمن كما آمن الكثير ممّن هم أشد منه كفراً وأقسى عناداً؟ بل ما الذي يطمئن هذا الإنسان إلى أن أبا لهب لن ينهض به دافع التحدّي عندما يسمع هذا الوعيد المسجل في حقه إلى أن يعلن إيمانه بالله ورسوله على الملأ، ليثبت بذلك أنه قد محا أسباب شقوته، وأن إخبار القرآن عن مصيره مخالف للواقع الذي تم.

إن بشراً من الناس لن يستوثق من تقلبات الزمن، وما قد يطرأ من الأحوال والأفكار الجديدة على أبي لهب وأمثاله، ونظراً لذلك فلن يجد من الجرأة ما يعتمد عليه في إطلاق مثل هذا الخبر الغيبي المخبوء في تلافيف المستقبل.

ومثله قول الله عزّ وجلّ في حق الوليد بن المغيرة المخزومي:

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صَعُوداً ﴾ إلى قوله: ﴿ سأصليه سقر وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر.. ﴾.

إن هذا الإخبار الغيبي: سأرهقه صعوداً.. سأصليه سقر.. ليس مما يتجرأ إنسان عليه لأن الإنسان يفرض الاحتمالات المختلفة للزمن، والأطوار المفاجئة العجيبة للإنسان، وهو ليس مطّلعاً على ما قد يأتي به الغد أو ما قد يفاجأ به فكر الإنسان. ولكنه إخبار غيبي يصدر عمّن بيده مصير الزمن والمكان، وعمّن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما ينتهي إليه حال أيّ إنسان.

وتدخل في هذا النوع تلك الآيات التي أخبرت عن اليهود وما قضى الله بشأنهم إلى قيام الساعة كقوله تعالى: ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً ﴾ (المائدة: ٦٤). وكقوله: ﴿ وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ (الأعراف: ١٦٧). وكقوله عزّ وجلّ: ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات.. ﴾ (الأعراف: ١٦٨).

وأنت إذا نظرت إلى تاريخ اليهود في العالم، وإذا تأملت ظاهرة انتشارهم وتفرقهم بين الأمم والشعوب، وكيف يختبئون خلف كل فتنة يهيجونها، ووراء كل نار يوقدونها، وكيف يبعث الله عليهم بين الحين والآخر من يسومهم سوء العذاب، وكيف أنهم ـ على الرغم من مِراسهم لأسباب الفتن والحروب وسيطرتهم على الكثير من أسواق العالم وتجاراته ـ لم يأتوا من جهدهم بطائل، ولم تقم لهم قائمة يطمئنون إليها، بل ظلوا مقطعين في الأرض. أقول: إذا تأملت في ذلك كله أدركت أن إخبارات القرآن عنهم وقعت كما أخبر، وأن الزمن ماضٍ في تحقيق المزيد منها.

إنك لتلاحظ تناقضاً عجيباً في واقع اليهود وشأنهم الذي يتقلبون فيه.

فهم الذين يملكون ينابيع كثير من الثروات في العالم، وهم الذين كانوا ولا يزالون يلعبون بالذهب في أسواق العالم خفضاً له ورفعاً، وهم الذين يختبئون خلف الكثير من سياسات العالم وقياداته يوجهون وينذرون ويغرون.. ولكنك تلاحظ أنهم ـ على الرغم من هذا كله ـ لم يستطيعوا أن ينشئوا لأنفسهم دولة مستقرة أو كياناً مطمئناً، وإن الأمم التي أنشأت كياناتها واستقرت في أوطانها، وصلت إلى ما ابتغته من ذلك منذ عصور بعيدة، باليسير مما يملكه اليهود ويسيطرون عليه.

فما تحليل هذا التناقض؟.. تحليله الوحيد أن الأمر في جملته تصديق أمين لحكم الله فيهم ووعيد الله لهم، إنه قرار الله عزّ وجلّ: ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾ يلاحقهم في كل حين وعلى كل حال. وأنه حكم الله عزّ وجلّ: ﴿ وإذ

تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ يهيمن عليهم في حالة العسر واليسر، وفي تقلبات البأس والضعف.

ومن النوع الثالث: آيات كثيرة تعلن، في بيانات حاسمة عن نواميس كونية، وتخبر أنها ستظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم وعلى الطاقة العلمية كلها، مهما تنوعت وتقدمت صعداً. فهي تستعصي على كل محاولات التغيير والتطوير، وإليك بعضاً من هذه الآيات:

- ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ (يس: ٦٨).
- ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (النساء: ٧٨).
- ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ (المؤمنون: ١٨).
- ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (الإسراء: ٨٥).
- ﴿ نحن قسَمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ (الزخرف: ٣٢).

تأمل في هذه التقارير القاطعة في أسلوبها، المطلقة عن قيود الزمان والمكان، المرسلة في قوة وإصرار إلى أعماق غيوب المستقبل، المتجاهلة بل المترفعة عن محاولات التطوير والعلم، أيمكن أن ينطق بها بشر؟.. وهل الإنسان نفسه إلاّ ذرّة من جزيئات الكون، فهو لا يدري ما الذي يأتي به الغد أو يتطور إليه العلم، أو تمتد إليه الطاقة؟

إن أعظم العلماء شأناً اليوم، يرى الحقيقة العلمية بعينيه، ثم يتحفظ مع ذلك في التعبير عنها، متوقعاً أن يفاجأ في كل يوم بقيود أو حدود جديدة لها. فأيّ رجل هذا الذي يستطيع أن ينهض من وراء القرون الغابرة، فيبعث إلى الدنيا كلها بتقرير علمي جازم يفصّل فيه أمر النواميس الكونية الراسخة، ويرفعها فوق هام البشرية مؤكداً أن أي طاقة، مهما كانت، لن تمتد إليها بأي تغيير؟

إنها معجزة الإخبار اللغوي، يقرره البيان الإلهي، صادراً عن الخالق ذاته، صاحب هذه النواميس ومبدعها، متحدياً قدرات التطوير ووسائل البحث والتغيير. وتلك هي الدنيا وأجيالها، وطموح العلم والبحث فيها، كل ذلك خاضع خضوعه المطلق لهذه القوانين والنواميس.

ولعلّ هذه النماذج كافية لبيان ظاهرة الإعجاز الغيبي في القرآن. ولعلك تلاحظ أن ما يسمى عند بعضهم بالإعجاز العلمي يندرج تحت الإعجاز الغيبي، لأن الآيات التي تتضمن حقائق علمية صدقت عليها موازين العلوم والاكتشافات الحديثة، تتضمن حقائق غيبية في الوقت ذاته.

ثالثاً: الإعجاز بالتشريع:

تحدّث كثير من الكاتبين عن الإعجاز التشريعي في القرآن، بطريقة لا أظن أنها تكشف حقيقة عن جانب جديد من الإعجاز القرآني، ينبع من أحكامه التشريعية. وقُصارى ما ينتهي إليه ذهن القارىء أو المتتبع لهذه الطريقة، إن في القرآن تشريعاً أصيلاً وأحكاماً مهمة وضرورية لمصالح الناس وإن علماء الشرائع والقانون لا غنى لهم، على مرّ العصور، عن الإفادة منها والرجوع إليها. أما أنها تشكل مظهراً من مظاهر الإعجاز في القرآن، فذلك شيء آخر قد يخفى على من يدرس الإعجاز التشريعي في القرآن بتلك الطريقة.

على أن الإعجاز التشريعي في القرآن، حقيقة بارزة لا تقبل ريباً ولا يكتنفها غموض، ولكن الأمر يحتاج إلى فهم حيثية الإعجاز التشريعي فيه، وهو ما فات التنبّه له، أو التنبيه إليه، لدى كثير من الباحثين.

ولا شك أن التنبّه إلى هذه الحيثية التي هي مكمن الإعجاز التشريعي في القرآن يحتاج إلى مقدمة، نوجزها فيما يلي:

من المعلوم فيما أجمع عليه علماء القانون والاجتماع، أن آخر ما يتوج به تقدم أيّ جماعة أو أمة في نهضتها المدنية والحضارية، هو تكامل البنية القانونية والتشريعية في حياتها. أي إن ظهور صياغة قانونية متكاملة في الأمة يعدّ الثمرة العليا لتقدمها الحضاري.

ولا يمكن أن تنعكس هذه الظاهرة بحال من الأحوال، أي فلم تصادف أن تجد جماعة من الناس بدأت سيرها في طريق الرقي والحضارة بإرساء بناء قانوني متكامل لحياتها، بحيث جعلت منه منطلقها إلى الثقافة والرقي الاجتماعي والاقتصادي والعلمي. ذلك لأن الأمة التي لم تتقدم حضارياً بعد، والتي لا تزال تعيش في عهد البداوة وفي ظل الأعراف القبلية، ليس في حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يُشعِرها بالحاجة إلى سن قانون ووضع تشريع. غير أنها تزداد شعوراً بذلك، تدريجاً كلما تقدمت حضارياً وازداد تركيبها تعقيداً.

غير أن الذي ظهر في الجزيرة العربية، قبل أربعة عشر قرناً، عكس هذا الذي أجمع عليه علماء القانون والاجتماع، وعرفه الناس من تجارب الأمم ووقائع التاريخ.. فلقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات الأميّة من أهل الجزيرة العربية، قانون متكامل يتناول الحقوق المدنية، والأحوال الشخصية ويرسم العلاقات الدولية ويضع نظام السلم والحرب ويضبط آثارهما.. كل ذلك، ولما تتعلم تلك الجماعات بعد شيئاً عن معنى المجتمع الذي يحتاج إلى قانون، ولما تأخذ بنصيب من العلم أو الحضارة والثقافة مما يعدّ خطوات أساسية لا بدّ من اجتيازها في طريق الوصول إلى المستوى الذي يوجِد الشعور بالحاجة إلى وضع تشريع وقانون.

ففكّر ما طاب لك التفكير، هل تجد من حلٍّ لهذا اللغز العجيب، إلا في اليقين بأن الكتاب الذي حوى هذا التشريع. إنما أُنزل وحياً من عند الله ولم يؤلّف من قِبَل أيّ بشر على وجه الأرض..

وإلا فأين المفر من أعجوبة لا يقبلها عقل أيّ مفكر: أن تؤلف قبائل تظلها حياة البداوة البدائية البسيطة قانون توثيق العقود، ونظام توزيع التركات والمواريث، وضوابط السلم والحرب ثم تمر الأجيال وتتطور الظروف والأحوال دون أن يشعر أي باحث منصِف بأيّ موجب حقيقي لتغيير شيء من هذه النظم والأحكام، بل تعقد لدراسته المؤتمرات العالمية بعد مرور أربعة عشر قرناً من وجوده، وتطبيق المسلمين له، ويجمع أساطين الفقه والقانون على أعقاب هذه المؤتمرات ـ على اختلاف مِلَلهم ومذاهبهم ـ على الأهمية البالغة لهذا

التشريع وعلى ضرورة دراسته والإفادة منه في الدراسات المختلفة.. أفيكون هذا التشريع الذي اتّسم بهذا الخلود من وضع جماعات من العرب والأعراب الأميين الذي يحكمهم نظام البادية وأعراف القبيلة؟.. أي مجنون هذا الذي يصدّق مثل هذا الخَلْط والهراء؟..

من أجل هذا اللغز الذي لا يحلّ إلا باليقين بأن هذا القرآن كلام الله، ذهب الباحثون المستشرقون ومن لفّ لفّهم يميناً ويساراً، في البحث عن تحليل مقبول لقصة هذا التشريع الذي ظهر فجأة في الجزيرة العربية، فمرّة فرضوا أنه مقتبس عن القانون الروماني، ولما رأوا أنه لا توجد أيّ جسور واصلة ما بين هذه الفرضية وواقع الجزيرة العربية آنذاك، تحولوا عن هذا القول إلى فرض أنه مقتبس عن الشرائع اليهودية.. ولما أعوزهم الدليل على هذا الزعم العجيب، قالوا فلعلّه مقتبس عن شريعة حمورابي.

كل هذا، فراراً من لغز عجيب يُلزِمهُم ـ إن هم لم يقبلوا وجهاً من هذه الوجوه ـ بالقول بأن هذا التشريع ظهر هكذا في جو الجزيرة العربية، دون أن ينبع من أرضها لأنه غير معقول أو أن ينزل من سمائها، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام.

ونحن نقول: أما أنه لا يمكن أن يكون قد نبع من أرضها، فهو صحيح، لأن فاقد الشيء لا يعطيه بل لا يستشعر الحاجة إليه. وأما أنه لا يمكن أن يكون قد نزل من سمائها، فهذا ما نخالف فيه إن أردنا أن نحلّ اللغز حلاً يقبله المنطق والعقل. بل نقول إنه لا يمكن إلا أن يكون شرعاً منزّلاً من السماء أي من لدن ربّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المبلغين له بلسان عربي مبين.

فإن لم نحلّ اللغز عن طريق اليقين بهذه الحقيقة، فلنعلم أن اللغز سيظل قائماً. وسيظل كل عاقل في حيرة من أمر هذا التشريع ومصدره، ولن يحلّ شيئاً من الأشكال تلك الافتراضات العشوائية التي لا تعتمد على أيّ بينة أو برهان أو حتى إشارة يستأنس بها.

فهذه هي خلاصة القول عن الإعجاز التشريعي في القرآن. أما القول

عن دقة هذا التشريع وسعته ومقوِّمات خلوده وصلاحيته، فحدّث عن ذلك ولا حرج، والكلام في ذلك متشعب، وطويل الذيل. إلا أن الحديث في ذلك خارج في جملته عن حقيقة الإعجاز الذي نتكلم عنه. وإنما مكمن الإعجاز التشريعي هو ما قد أوضحناه بشكل موجز.

رابعاً: مظهر جلال الربوبية:

لم أجد من فصل القول في هذا الجانب من الإعجاز القرآني، على الرغم من أنه من أبرز ما يظهر حقيقة الإعجاز القرآني، فهو الجانب الذي لا يمكن أن يخفى حتى على العامّة الذين لا يتمتعون بدراية واسعة للبلاغة العربية أو الثقافة العامّة. إذا كانوا ممّن يقرأون القرآن بتأمل وتدبّر.

ومما لا ريب فيه أن أكثر الناس الذين يقرأون كتاب الله تعالى، وقد وقر في أنفسهم أن هذا الكلام لا يمكن أن ينطق به بشر من الناس، دون أن يعلموا البرهان الواضح على يقينهم هذا، إنما يستشعرون في الحقيقة، هذا النوع الذي نحن بصدد شرحه وتحليله، وهو ما أسميناه: **مظهر جلال الربوبية في القرآن**، إلا أن من الطبيعي أن القارىء الذي لا يتمتع بثقافة أو دراية علمية واسعة لا يمكن أن يعبّر عن مصدر شعوره أو يقينه الذي تأثر به.

ولكي نحلّل هذا الجانب المهم من الإعجاز القرآني، يجب أن ننبّه إلى حقيقة علمية ونفسية لا يقع فيها ريب ولا مراء. فما هي؟

من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم. فما تتجلى الأغوار النفسية لشخص على شيء كما تتجلى على ما قد يكتبه أو يقوله. وكلما تبسط الإنسان وزاد من حديثه الذي يكتبه أو يقوله، ازدادت خصائصه النفسية جلاءً ووضوحاً.

لذا لم يكن من اليسير أن يقلّد كاتبٌ كاتباً آخر في أسلوبه إذا كتب. فلا يستطيع الرجل أن يتقمص نفسية المرأة في كتابته، ولا يستطيع كاتب معاصر ـ مهما بلغ في السيطرة على أسلوبه وقلمه ـ أن يقلِّد كاتباً عاش قبل هذا العصر. ولقد حاول كثيرون أن يقلدوا أسلوب الجاحظ وغيره فما استطاعوا إلى ذلك

سبيلاً. ذلك لأن الأسلوب ليس طريقة معينة في صوغ العبارة فقط، بل هو قبل ذلك مرآة لنفسية صاحب الأسلوب. فلئن استطاع الكاتب أن يقلِّد الآخر في صوغ العبارات، فهيهات أن يستطيع تقليده في إبراز نفسية كنفسيته. فمن هنا يأتي العجز عن أن يتقمص أي كاتب أسلوب غيره.

وليزداد الأمر وضوحاً لك، افرض أن العقاد رحمه الله أحبّ أن يقلِّد ـ وهو الكاتب القدير ـ أسلوب المازني رحمه الله في مرحه ودعابته، أفيستطيع أن يفعل ذلك بنجاح؟ من البداهة بمكان أنه لا يقدر لأن ما طبع عليه العقاد من الجدّ والغوص إلى أعماق المعاني، يحول دون إمكان ظهوره بمظهر إنسان مرح يتناول الأحداث والمعاني من جوانبها السطحية المضيئة.. ولو أن المازني أراد هو الآخر أن يقلِّد أسلوب العقاد. لوقع في براثن العجز ذاته، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن طبعه ويرتدي طبعاً آخر لم يفطر عليه..

فإذا اتضح لنا أن الفوارق النفسية والطبيعية تحول دون إمكان تقليد كلٍّ منّا للآخر في أسلوب الكتابة والقول، على الرغم من وجود الإنسانية العامّة قاسماً مشتركاً بين الجميع، فأحرى ـ في باب البداهة والوضوح ـ أن لا يستطيع إنسان من الناس أيّاً كان، أن يتجرد عن بشريته وطبيعته، ثم يجعل من نفسه إلهاً يتصف بكل ما لا بدّ أن يتّصف به الإله من الصفات الربانية المضادة للطبيعة البشرية، وينطق بكلام تبرز فيه هذه الألوهية بكل ما فيها من خصائص وصفات، وكل ما تمتاز به من تجرد عن مظاهر البشرية والضعف الإنساني.

ولكي نرى تطبيق هذه الحقيقة على كتاب الله تعالى، يجب أن نلاحظ أن الآيات القرآنية، تنقسم إلى طائفتين: أما طائفة منها فيتحدث فيها الله عزّ وجلّ على ألسنة أنبياء أو أشخاص آخرين، وذلك في نطاق القصص أو الإخبار عن أقوالهم. ولا كلام لنا في هذا الصدد عن هذه الطائفة من الآيات.

الطائفة الثانية آيات ذاتية، أي يتكلم فيها الله عزّ وجلّ عن ذاته آمراً أو ناهياً أو مخبراً، فإذا تأملت في هذه الآيات، رأيتها تتسم بجلال الربوبية وصفات الألوهية، ولم تجد فيها أي معنى من المعاني البشرية والصفات

الإنسانية، كما ستجد الآن من خلال الأمثلة التي سنذكرها.

فإذا كان الإنسان عاجزاً عن تقليد أسلوب أخيه الإنسان: بسبب حواجز الطبائع المتخالفة، أفيكون قادراً على صياغة كلام بعيد عن شوائب البشرية، تشعّ منه رهبة الربوبية وينشر من حوله جبروت الألوهية، أي: أفيقدر الإنسان أن يجعل من نفسه ربّاً للعالمين وينطق باسمه محلياً نفسه بصفاته بعد أن عجز أن يجعل من نفسه زيداً من الناس من أمثاله وأن ينطق بأسلوبه ويرتدي صفاته؟..

إن هذا مستحيل بلا شك...

ذلك لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلى عن الإنسان لحظة من لحظات حياته، ومن ثم فهي لا بدّ أن تعوقه عن القدرة على هذا الأمر. وإذا حاول أن يجرّب عن طريق الصنعة والتمثيل، فإنه لن يأتي إلا بكلام متنافر متهافت في وحيه ودلالته، لا يدل إلّا على ما أقامه في نفسه من ازدواج متكلف كاذب في الطبع والشعور.

وإليك بعض الأمثلة القرآنية التي يشعّ فيها جلال الربوبية وصفات الألوهية من خلق وإعدام وقدرة وإحاطة.. إلخ، تأملها جيداً، وتساءل مع نفسك: أفيمكن أن تكون هذه الآيات مما قد نطق به بشر مثلنا من الناس:

﴿ فوربك لنحشرنَّهم، والشياطينَ ثم لنُحضرنَّهم حول جهنم جِثيّاً، ثم لننز عنَّ من كل شيعة أيُهم أشدُ على الرحمن عِتياً، ثم لَنحنُ أعلمُ بالذين هم أولى بها صِلياً، وإنْ منكم إلا واردُها، كان على ربك حتماً مقضِيّاً، ثم نُنجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثياً ﴾ مريم: ٦٨ ـ ٧٢.

﴿ إنني أنا الله، لا إلّه إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري، إن الساعةَ آتيةٌ أكاد أخفيها لتُجزى كلُ نفس بما تسعى، فلا يَصُدَنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ (طه: ١٤ ـ ١٧).

﴿ وإنْ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيرَه، وإذن لاتَّخذوك خليلاً، ولولا أنْ ثبّتناك لقد كدْتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك

ضِعْف الحياة وضِعْفَ الممات ثم لا تجدُ لك علينا نصيراً، وإنْ كادوا لَيستفزُّونك من الأرض ليُخرجوك منها، وإذاً لا يَلْبَثُون خِلافك إلا قليلاً، سنةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجدُ لسنَّتنا تحويلاً ﴾ (الإسراء: ٧١ ـ ٧٧).

﴿ إنّا نحنْ نحيي ونُميت وإلينا المصير، يوم تشقَّق الأرضُ عنهم سراعاً، ذلك حشرٌ علينا يسير، نحنُ أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد» (ق: ٤١ ـ ٤٤).

فتأمل في هذه الآيات التي يتجلى فيها جلال الربوبية، ثم قل لي: أفتجد أن مثل هذا الكلام مما يمكن لبشر من الناس أن يصطنعه اصطناعاً وأن ينطق به تمثيلاً أو أن يتحلى به تزويراً؟

أمَا إنَّ الطبع لَغلاَّب، وليقم أي فرعون من الفراعنة المتألهين أو المتجبرين، ثم ليجرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذي يتنزل من عرش الربوبية ويغمر النفس بالرهبة والجلال، فإن لسانه سيدور في فمه على غير هدى، وإذا تكلم فسيأتي بكلام يكشف بعضه بعضاً فيه محاولة التمثيل وليست فيه صنعته إذ هو مما لا يسلس القياد فيه لتصنّع ولا لتمثيل.

إن بشرية الإنسان وضعفه يمنعانه ـ أيّاً كان مسلماً أو كافراً ـ من أن يقول: ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ أو يقول: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أو أن يقول: ﴿ كلُّ نفس ذائقة الموت ونبلونكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾. وإن هو حاول أن يقول شيئاً من هذا فسيلتوي عليه لسانه ويتعثر بضعفه ومخلوقيته ثم لن ينجح في النطق بمثل هذا الكلام.

وانظر، فقد صوّر الله لنا بمحكم بيانه المعجز ألوهية فرعون الزائفة، وكلامه الذي حاول أن يبثّ فيه دعوى ألوهيته وربوبيته، وصوّر لنا من خلال ذلك كيف أن كلامه جاء تكذيباً لطموحه وربوبيته الزائفة. وذلك عندما قال عنه:

﴿وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غيري فأوقد لي يا هامانُ

على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي اطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه من الكاذبين ﴾ (القصص: ٣٨).

إنّه يدّعي الربوبية، ويزعم أن لا آله لهم غيره، ثم يطلب من هامان أن يوقد على الطين، فيجعل له منه برجاً عالياً يصعد عليه ليبحث من هناك عن إله موسى!.. فانظر كيف صوّر القرآن بشرية فرعون التي فرضت نفسها على كلامه لتكذبه فيما يزعم ولتسخر من عظم دعواه أمام ضآلة ذاته، صوّر ذلك في قوله: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾.. يدّعي الربوبية ويريد الصعود إلى أجواء السماء ثم لا يرى سبيلاً إلى ذلك إلا أن يستعين بالطين وأسباب الطين..

إن الذي يضطر إلى الاستعانة بالطين، فيما يسعى إلى تحقيقه، لا يمكن إلا أن يكون ذلك المخلوق الضعيف الذي خلق من طين.

ثم إنه يقول: لعلّي أطلعُ إلى إله موسى، ولعلّ أداة رجاء. والرجاء من أبرز دلائل الضعف وتقاصر القدرة. ذلك لأن الذي يرجو شيئاً، إنما يظهر تعلق قلبه وانصراف نفسه إليه دون أن يستيقن أنه قادر على بلوغ فعله. إذ كانت رغبته فيه أقوى من قدرته عليه، فهو يعلّل نفسه بالأمل.

إنّ الرب الحقيقي أجلُّ من أن يكون على هذه الحال، ولكنها الفطرة البشرية تأبى إلّا أن تفرض نفسها على لسان صاحبها، سواء أكان مؤمناً أم كافراً، متجبراً كان أم متألهاً.

فهذا الجانب من الإعجاز القرآني، لا يتوقف إدراكه أو الشعور به على سعة علم أو ثقافة أو بلاغة. بل لابدّ أن يتنبه إليه كل متدبر لتلاوة القرآن متأمل فيما يقرأ، مهما كانت ثقافته ودرايته. غير أنه قد لا يحسن التعبير عمّا يشعر به، ولا يقدر على تحليله وشرح أسبابه.

وإذا رأيت مَنْ إذا تلا القرآن تأثر به قائلاً: إن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر، فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الأخير الذي فرغنا من شرحه وتحليله.

غير أن كل هذا الذي أوضحناه من الوجوه المختلفة للإعجاز في هذا الكتاب الربّاني لا يتجلّى شيء منه إلا لقلب لم تخنقه أغشية الكبر والعناد، فأقبل إلى القرآن يتأمله متجرداً عن أي عناد أو أسبقية إلى ضلالة عاهد نفسه أن لا يتحول عنها.

فأما من قَدْ ران على قلبه الكبر والعصيان، ومرّ بالقرآن على هذه الحال. فقد لا يتنبه إلى شيء مما ذكرنا ولا يتأثر به، وإن نبهه المنبهون واستثاره الناصحون، كيف وهو الذي يقول القرآن في حقه وحق أمثاله:

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ويقول أيضاً: ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمىً.. ﴾ (فصّلت: ٤٤).

نسأل الله تعالى أن يلهمنا الحق والرشد، وأن لا يصدّنا بفعل شهواتنا وأهوائنا عن الحق الذي أنزله على رسله وأنبيائه، إنه على كل شيء قدير.

الذين كتبوا في إعجاز القرآن

والكاتبون في إعجاز القرآن من العلماء وأئمة البيان كثير، وأول من كتب في ذلك الجاحظ رحمه الله (ت: ٢٥٥) فقد ألّف في ذلك كتاباً سمّاه (نظم القرآن) ثم ألّف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت: ٣٠٦) كتابه إعجاز القرآن وجاء من بعده عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١) فشرحه شرحاً مستفيضاً سمّاه: المعتضد. كما ألّف كتابه المشهور (دلائل الإعجاز). ثم جاء أبو عيسى الرماني (ت: ٣٨٥) فألّف هو الآخر كتاباً في إعجاز القرآن، وظهر من بعده كتاب القاضي أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣) واسمه أيضاً: إعجاز القرآن، وهو كتاب جليل سلك فيه مؤلفه أقرب الوسائل إلى كشف جوانب الإعجاز القرآني وتذوقه.

وكتب بعدهم كثيرون في هذا الباب، كالإمام الخطابي وفخر الدين الرازي وابن أبي الأصبع. أما في عصرنا فأحسب أن خير من كتب في هذا الموضوع

المرحوم مصطفى صادق الرافعي صاحب كتاب إعجاز القرآن. أما سيد قطب رحمه الله فقد عالج نواحي خاصة من إعجاز القرآن. فأبدع فيها وأجاد، ومن خير آثاره في ذلك، التصوير الفني في القرآن، ومشاهد يوم القيامة في القرآن. هذا إلى جانب تفسيره العظيم. في ظلال القرآن، فقد نهج فيه نهجاً جديداً قد يكون بعيداً عن تحقيق المسائل والقضايا العلمية، ولكنه لامس حاجة في نفوس كثيرين من الناس وهي التطلّع إلى الكشف عن وجدانيات القرآن وأسراره وتبسيطها وتقريبها للأفهام بعيداً عن التأملات العلمية والفكرية العويصة.

* * *

obeikandl.com

مَوْضُوعَاتُ القُرْآن

وطريقة عرضه لها

تدور بحوث القرآن كلها على غرض رئيسي واحد، هو دعوة الناس كلهم إلى أن يكونوا عبيداً لله عزّ وجلّ بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار[1].

وتلك هي خلاصة ما ينطوي عليه الدين الحق الذي ألزم الله به عباده منذ أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن بعث خاتم الأنبياء محمداً ﷺ.

وكلُّ ما في القرآن من موضوعات، متفرع عن هذا المقصد الرئيسي الأسمى.

إذ كان لا بدّ، لكي يدين الناس بالعبودية لله وحده من أن يطّلعوا على دلائل وجوده ووحدانيته وأن يستيقنوا قيام الناس لرب العالمين من بعد الموت، وأن الذي ينتظرهم إذ ذاك إما سعادة عظيمة في جنات الخلد أو شقاء وبيل في نار تتلظى. فكان لا بدّ من أن يعرض القرآن لموضوع العقيدة وكلياتها، وضرورة إيمان كل إنسان عاقل لها.

فهذا هو الموضوع الأول، وطريقة عرض القرآن له تقرير كليات العقيدة التي لا بدّ من الاعتقاد بها، من وحدانية الله عزّ وجلّ وبعث الناس بأرواحهم وأجسادهم يوم القيامة، والحساب والصراط والجنة والنار وما إلى ذلك، ثم عرض الأدلة على هذه الكليات، وأهمها وجود الله ووحدانيته بأسلوب يشترك في

---

(١) انظر ص ١٢٠ من هذا الكتاب.

فهمه سائر أصناف الناس وطبقاتهم، ولذلك تراه ينبّه الناس إلى أدلة الكون وما يشيع فيه من دقة النظام وروعة الخلق وجمال التنسيق، دون أن يعرض لشيء من الأدلة المنطقية الفلسفية أو العلمية التي تختصّ بفهمها فئات معينة من الناس، اللهمّ إلا أن تدل الآية على شيء من ذلك من وراء دلالتها على القدر المشترك الذي يفهمه الناس كلهم، ففي القرآن من ذلك كثير وقد مرّ بيانه فيما مضى.

وإذا تأملت في معالجة القرآن لموضوع العقيدة، فإنك قلّما تجده يعرض للدليل على أصل وجود الله عزّ وجلّ، وإنما هو يقرر وحدانيته وينبّه العقول إلى الأدلة المختلفة على ذلك. والسبب هو أن وجود الله عزّ وجلّ أمر مفروغ منه لا نزاع ولا حاجة إلى البحث فيه، وإنكار وجوده أو الشك فيه شيء لا يتصوره عقل عاقل. فهذا ما أراد القرآن أن يوحي به عندما لم يعرض للاستدلال على أصل وجود الخالق عزّ وجلّ إلا في آيات قليلة. والحقيقة أن نزعة الحديث عن وجود الله والشك فيه أو فرض عدم وجوده، شيء لم يعرف إلا في القرون الأخيرة، أما فيما مضى فقد كان الإيمان بوجود الخالق جلّ جلاله أمراً مفروغاً منه، أما مظاهر الضلال فإنما كانت تحوم حول تفسير هذا الخالق أو توهم تعدده ووجود شركاء له، أو توهم حلوله في الأفلاك العشرة أو العقول العشرة كما كان يتخيل بعض فلاسفة اليونان.

ثم كان لا بدّ من عرض العِبَر والآيات المختلفة التي مرّت مع التاريخ كي يستنير بها العقل في مجال اعتباره واستدلاله، وكي تتجلى مظاهر عظمة الله عزّ وجلّ وقدرته فيما سجله الزمن من واقع وأحداث. فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع آخر هو: القصص، قصص الأمم الخالية وما آل إليه أمرها من الهلاك والدمار، وقصص كثير من الأنبياء الذي تعاقبوا على الدعوة إلى دين واحد، وكرروا إبلاغ الناس حقيقة واحدة لم يختلفوا عليها ولم يتفرعوا عنها في طرائق متعددة أو متباينة. ولا نطيل الحديث عن القصة وكيفية عرض القرآن لها، فإن لذلك فصلاً خاصاً به سيأتي إن شاء الله.

ثم كان لا بدّ أن تقوم حياة الناس في دنياهم على نظام معين يضمن لهم

مصالحهم وأسباب عيشهم، ويجمعهم على صراط من التحابب والتعاون، فكان من مقتضى ذلك أن يعرض لموضوع ثالث، هو: التشريع، وقد أوضح القرآن في عرضه لهذا الموضوع الأحكام المتعلقة بسائر المعاملات المدنية المختلفة، حيث قرر الأحكام المتعلقة بالبيوع والإيجار والشركات وعامة العقود المالية وغيرها، وقرر الأحكام المتعلقة بمختلف الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وسائر ما يتعلق بذلك من أحكام الأسرة، وتحدّث عن الجنايات والجرائم المختلفة وعقوباتها، وعمّا ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين، كدولة، بالدول والجماعات الأخرى. والحاصل أن القرآن قد عرض لعامة ما يسمى اليوم بالقوانين المدنية الجنائية، والنظم الدستورية والإدارية، والقانون الدولي.

غير أن طريقة عرض القرآن لهذه النظم والأحكام، اختلفت إلى ثلاث طرق وذلك حسب اختلاف متعلقات تلك الأحكام.

فمنها ما نصّ القرآن على حكمه بعبارات حاسمة واضحة منفصلة لا تعليق فيها ولا إبهام أو إجمال، وذلك مثل فريضة الميراث وحقوق كلٍّ من الورثة في مال الموروث، ومثل عقوبات بعض الجرائم كالزنى والسرقة والقذف وجريمة القتل وقطع الطرق؛ ومثل كثير من مسائل الأحوال الشخصية.

ومنها ما اكتفى ببيان حكمه من وجوب أو حرمة أو إباحة.. وعرَّف بها إجمالاً، ثم وكل إيضاح الشروط والصفات وكيفية التطبيق إلى بيان الرسول ﷺ، وذلك مثل عامّة العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة، ومثل كثير من أحكام المعاملات.

ومنها ما وضع فيه المبادىء الأساسية وقرر بحقه الأحكام الكلية ثم أناط تعيين الاحتمالات ووجوه التطبيق فيه بأعراف الناس وتطورات الزمن والأحوال.

ثم كان لا بدَّ، لتقوم حياة الناس على مبدأ قويم ونظام صالح، ولتتوفر ضمانات تطبيق ما وضعه أمامهم من الأحكام التشريعية ـ من أن يحيا القلب الإنساني بمراقبة الله عزّ وجلّ في كل الظروف والأحوال وأن تقوم بين الناس

وشائج من الأخلاق الفاضلة والمحبة والإيثار وما إلى ذلك. فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع رابع وهو: الأخلاقيات، فعني به عناية كبرى، وجعله من الثمرات الأولى للإيمان بالله عزّ وجلّ، وأوضح أن هناك تلازماً شديداً بين عبودية الإنسان لله عزّ وجلّ والسلوك الأخلاقي الفاضل في المجتمع.

والطريقة القرآنية لعرض هذا الموضوع، أنه يربط بين مبادىء العقيدة والإيمان بالله عزّ وجلّ، والمبادىء السلوكية في الحياة، ويكشف عن التلازم الذي بينهما، وأن الثانية دائماً نتيجة وثمرة للأولى.

فهو يوضح لك الرابطة المتينة بين اعتقادك بأنك عبد لله عزّ وجلّ، والتواضع ولين الجانب لإخوانك من الناس، ويأمرك بالثاني من حيث أمرك وألزمك بالأول فهو يقول مثلاً: ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يَمْشُون على الأرضِ هَوْناً وَإذا خَاطبهُمُ الجاهلُون قالُوا سلاماً ﴾[1].

وهو يوضح لك التلازم بين اعتقادك بأن الرزق إنما يأتي من عند الله عزّ وجلّ وبتقديره، وبأن المال هو مال الله جعل الناس خلفاء فيه، وبين ما ينبغي أن تلتزمه بصدد الإنفاق، من القصد في ذلك وعدم الإقتار ولا الإسراف، ويوضح لك أن الثاني نتيجة للأول دائماً. فهو يقول: ﴿ ولا تجْعلْ يدكَ مغلُولةً إلى عُنقك ولا تبسطها كلَّ البسطِ فتقْعدَ ملوماً محسوراً ﴾[2] ثم يوضح أساس هذا الأمر قائلاً: ﴿ إنَّ ربَّكَ يبسط الرزق لِمَنْ يشاءُ ويقْدرُ إنَّهُ كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾[3].

أي فالقرآن يقوِّم المعايير الأخلاقية تقويماً دينياً، ويجعل وجه ضرورة الالتزام بها الإيمانَ بالله عزّ وجلّ بكل ما يستلزمه من توابع ومتممات، بل إنه ليهدد أولئك الذين يفضلون العثوَّ والفساد في الأرض بأخلاقهم السيئة، بأن أفئدتهم وعقولهم لن تتفتح لفهم الحقائق وأنها ستظل منصرفة عن أن تعي شيئاً

---

(١) الفرقان: ٦٣.
(٢) الإسراء: ٢٩.
(٣) الإسراء: ٣٠.

من دلائل الإيمان بالله، فهو يقول مثلاً: ﴿ سأصرفُ عنْ آياتي الذينَ يتكبرُون في الأرضِ بغيرِ الحق، وإنْ يرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنُوا بها.. ﴾[1].

فهذه جملة الموضوعات التي يتناولها القرآن بالبحث وتلك هي طريقة عرضه لها ذكرناها بسرعة واختصار، وهي كما قلت لك فروع عن المقصد الأول الذي خاطب القرآن من أجله البشر، ألا وهو أن يدخل الناس في العبودية لله بالإيمان والعبادة طوعاً كما أدخلهم فيها بالفطرة والطبع كرهاً.

* * *

(١) الأعراف: ١٤٦

obeikandl.com

التصوير في القرآن

مظهره ووسائله

تمهيد:

يقول علماء العربية والبيان: الكلام ينقسم إلى خبر وإنشاء.

والخبر هو ـ كما تعلم ـ الحديث عن معنىً قد وقع، على سبيل الإطلاع عليه لمن كان جاهلاً، أو التذكير به لمن كان ناسياً؛ والإنشاء هو تحصيل معنى عن طريق استفهام أو طلب.

فشأن الكلام ـ على كل حال ـ مرتبط بالمعنى، إخباراً به أو استفهاماً عنه أو طلباً له، وليس له شأن بما وراء ذلك.

وما هو المعنى؟... إنه عبارة عن كل ما يدركه العقل، فكل ما علمه العقل فهو معنى.

ومن هنا، كانت صلة الكلام بالعقل دائماً؛ والمتكلم إنما يخاطب في الناس عقولهم؛ فإذا أدرك العقل واستوعب، حمل إلى مكامن الإحساس والوجدان من ذلك المعنى ما يلائمه من التأثيرات المختلفة. فتفاعل الإحساس بها وتأثر.

غير أن لكلام القرآن طريقة أخرى في الخطاب.

إنه لا يخاطب العقل وحده، على نحو ما نعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام. ولكنه يخاطب كلاً من العقل والخيال والشعور معاً؛ أو قل إنه يحمل إلى العقل معنىً يخاطبه به وينهيه إليه، وينفث في المشاعر والخيال إحساساً

بصورة ذلك وينبههما إلى ما فيه من حركة وحياة.

وكلام القرآن، لا يعثر على هذا السبيل في الخطاب اتفاقاً؛ أو بأن يتهيأ له سبيل إلى تشبيه أو استعارة أو مجاز، حتى إذا تجاوز ذلك عاد إلى النسق المألوف والكلام المعتاد. بل هو في القرآن نسق مطّرد، وطريقة متبعة، وسبيل عرفت به وعرف بها؛ سواء كان يأمر وينهى، أو يخبر ويقصّ، أو يعلّم ويشرّع، أو يتحدث عن غيب أو يحذر من عذاب.

وسرُّ العجب والإعجاز في ذلك، كلٌّ من حقيقتين اثنتين:

الأولى: أن المعاني، في حقيقتها، ليست إلا مجردات اعتبارية، يهضمها ويدركها العقل وحده. فتَحوُّلها إلى صورة مما تألفه العين ويدركه الشعور والخيال، مما لا يقدر عليه الإنسان إلا في حدود ضيقة وبالنسبة لمعانٍ معينة.

الثانية: أن الألفاظ، ليست إلا حروفاً صوتية جامدة، فتحولها إلى ريشة تنبع من رأسها الأصباغ والألوان المختلفة المطلوبة لتحيل المعنى إلى صورة في لوحة يتأملها الخيال، بل تكاد أن تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل ـ أمر لا يقوى عليه شيء مما نسمّيه المجاز أو البلاغة والبيان.

ومع ذلك فإن لكلٍّ من المعنى واللفظ في القرآن شأناً آخر!..

فليست المعاني في القرآن مجردات اعتبارية لا يدركها إلا العقل، وإنما هي صورة حيّة تمرُّ بخيال القارىء، ويلمسها إحساسه، وتكاد أن تراها عينه. وليست الألفاظ في القرآن تلك الحروف التي لا تدل إلاّ على المعنى، بل هي ينبوع يفيض بالصور والأحاسيس والألوان.

وآية هذا الذي نقول ـ قبل أن نعرض للدليل التطبيقي ـ أن تتذكر انطباعاتك النفسية والشعورية تجاه القرآن عندما كنت تتلوه أو تنصت إليه في زمان طفولتك (إن كنت ممّن أُتيح لهم أن يمارسوا تلاوة القرآن في عهد الطفولة)؛ فستتذكر أنه قد كانت لخيالك جولة كبرى ونشاط غريب في آفاق واسعة بعيدة أثناء تلاوته أو الإنصات إليه؛ وستردُّك ذاكرتك إلى صور وأشكال وأخيلة غريبة منطبعة في خلدك، كلما قرأت شيئاً من آياته.

وإن في خزانة فكري اليوم لنماذج كثيرة من هذه الأخيلة والصور التي انطبعت فيها مما كانت ترسمه الآيات في ذهني أيام كنت منكبّاً على دراسة القرآن وتعلمه، وأنا طفل، والكثير منها غريب ومضحك!..

ولقد كنت أحسب فيما مضى أن مردَّ ذلك إلى حالة خاصة بي هي الجهل أو نحوه، ولكن لدى دراسة معاني القرآن وما تيسر من آدابه، علمت أن ذلك هو شأن القرآن وعمله في الأخيلة كلها، ورأيت الكاتب والإنسان الكبير: سيد قطب رحمه الله يذكر هذا المعنى ويصف الصورة التي كانت ترسمها هذه الآية في خياله إذ هو طفل: ﴿ومن الناس من يعبُدُ اللَّهَ على حرْفٍ، فإن أصابهُ خير اطأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه، خَسِر الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسرانُ المبين﴾[1].

وأهمية الطفولة بالذات، لكشف هذا الجانب من أسلوب القرآن ومنهجه هي أن الطفل بمقدار ما يكون استعداده لتلقي المعاني المجردة ضعيفاً، يكون استعداده لتصور الرسوم والتقاط الأشكال قوياً؛ فللطفل خيال مشبوب، ومرآة صافية سرعان ما يلتقط بها صور الأشياء. ومن هنا كانت هذه الظاهرة قيمة كبرى في كشف معنى «التصوير القرآني» والبرهنة عليه.

فلا يهمنا إذاً، أن تثبت هذه الصور في ذهن الطفل مشوّهة أو ناقصة أو غير ذات دلالة، لأن ذلك هو شأن تخيّل الصورة دون إدراك المعنى، ولكن المهم أنه يجد في هذا الكتاب ما يخاطب خياله، وإن لم يجد فيه إلا القليل مما يخاطب عقله، على حين أن ذلك لا يتفق له بالنسبة للكتب الأخرى اللهمّ إلا تلك التي صيغت خصيصاً من أجله.

* * *

ثم إن التصوير القرآني يتدرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة، وكثيراً ما تجد هذه المظاهر كلها مجتمعة في نصٍ واحد، وقد تجد بعضها متفرقاً في نصوص متعددة.

---

(١) الحج: ١١، وانظر مقدمة كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، وهو مرجع ذو أهمية بالغة في هذا الباب.

فأول مظهر للتصوير، هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة.

المظهر الثاني: تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر متحرك حيّ.

المظهر الثالث: تضخيم المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك.

والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر، لا تعدو أن تكون استعارة، أو مجازاً مرسلاً، أو تشبيهاً وتمثيلاً. وهذه الوسائل التي وُضع عليها علم البيان إنما هي قواعد استخلصت واستنبطت من التصوير الذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم؛ فالقرآن هو الأساس لهذه القواعد وليس العكس كما قد يتوهم.

أما الوسيلة البعيدة، فلسنا نملك منها إلا الوصف التقريبي؛ إذ هي سر إعجازه وهي الغاية التي تقف دونها طاقة أئمة البيان. وكل ما نستطيع أن نقول عنها أنها الكيفية اللطيفة الدقيقة التي تتألف الكلمات على وفقها وتتناسق الحروف والحركات وما يتبعها من مدود وشدّات على أساسها، فتخرج الكلمة والجملة في قالب من اللفظ وطريقة الأداء يبث في الإحساس والخيال صورة مجسّمة حيّة للمعنى!..

ولو ذهبت تفكر، لتقف على القاعدة التي بها يتم تصوير اللفظ للمعنى، كي تتخذ منها دستوراً لصياغة الكلام، على نحو ما فعل العلماء في استنباط قواعد الاستعارة والمجاز وغيرهما ـ لما انتهيت إلى شيء!.. كل ما يمكن للفكر أن يعلمه، وكل ما يمكن للحس أن يشعر به، هو أن هذه الألفاظ القرآنية تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك، وإن لتناسق حروفها المعينة وتوالي حركاتها المتنوعة مدخلاً وأثراً كبيراً في هذا التصوير.

ثم إنك قد تجد الجملة كلها تحمل إلى خيالك صورة المعنى وتبث فيه الحركة والحياة، وقد تجد كلمة واحدة تؤدي هذه المهمة كلها.

وما أظنك إلا مستعجلاً في الانتقال إلى عرض نماذج وأمثلة لكل هذا الذي نقول، فلنكتف بما ذكرناه من التقرير والتعريف النظري، ولنبدأ بذكر

بعض الأمثلة. ونقول، قبل عرض الأمثلة، كما قال المرحوم سيد قطب: إن الأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله حيثما تعرض لغرض من الأغراض، وحيثما شاء أن يعبّر عن معنى مجرد أو حالة نفسية، أو صفة معنوية. أو نموذج إنساني، أو حادثة واقعة أو قصة ماضية، أو مشهد من مشاهد يوم القيامة، أو حال من حالات النعيم والعذاب[1].

* * *

وإليك الآن هذه النماذج:

١ ـ أوضح الله لرسوله أنه لا جدوى من أن يضيق صدره بكفر الكافرين، وإلا فليجهد جهده وليعمل كل ما بوسعه في تقديم آية لهم، إن كان قادراً، يبرهن بها على صدقه ويدخل بها الإيمان في قلوبهم. فالتعبير عن هذا المعنى بمثل هذه الألفاظ أو نحوها مما هو مألوف ومقدور عليه، وهو معنى يخاطَب به العقل والفكر مباشرة، ولكن انظر إلى التعبير القرآني:

﴿ وإنْ كانَ كبُر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلماً في السماء فتأتيَهُم بآية ولو شاء اللَّهُ لجمعهُم على الهدى، فلا تكونَنّ من الجاهلين ﴾[2].

فقد صوّر أولاً التألم من إعراضهم، في صورة شيء قد كبر وضخم حجمه ينوء الرسول ﷺ تحت ثقله ويضيق ذرعاً به. ثم صوّر الجهد الذي لن يأتي منه بطائل إن هو أجهد نفسه به، بصورة من يريد أن يتخلص من كل الثقل العالق به، فهو ينبعث، في قلق وبحث دائبين، نحو كل الجهات، وخلف كل حجاب وستر، ليعثر على ما قد ينشط به من هذا العقال المتشبث به. فأنت ترى الآية قد أخرجت هذا المعنى الفكري في مظهر شيء محسوس، ثم بثّ فيه الحركة والحياة كما قد رأيت، ثم جسّمت الفكرة نفسها في هذه الصورة الحيّة المتحركة وخاطبت بذلك كله الخيال قبل أن تخاطب مجرد الفكر والذهن.

---

(١) التصوير الفني: ٣٠.

(٢) الأنعام: ٣٥.

٢ ـ أمر الله رسوله ﷺ إن هو التقى بجموع الكافرين الذين أصرّوا على عنادهم، أن يشتد في قتالهم حتى تحيق بهم الهزيمة ويدخل في قلوبهم الرعب. فانظر إلى الأداة التي استعملها في التعبير عن هذا المعنى: ﴿ فإما تثقفنَّهم في الحرب، فشرد بهم من خلفَهم، لعلّهم يذَّكرون ﴾[١]. فقد أخرج معنى التلاقي الذي يكون بين المسلمين وأعدائهم، في صورة من ظل يتربص بشيء حتى ظفر به ووقع عليه وعبّر عن ذلك بقوله: ﴿ تثقفنّهم ﴾ بمجموع ما تحمله هذه الكلمة من الدلالة ومن الصياغة اللفظية، ومن تناسق السكنات والحركات والتشديد البارز بينها. ثم أخرج معنى إلحاق الهزيمة، في صورة فريدة عجيبة، هي صورة جند أقوياء أشدّاء انقضوا في هجوم صاعق على طلائع أعدائهم أو الصفوف الأولى منهم؛ فأخذ الرعب والفزع منهم كل مأخذ حتى سرى ذلك منهم إلى من خلفهم من بقية الجموع فتبعثروا في كل جهة قبل أن يصل إليهم السوء ويلامسهم.

لا ريب أنك إنما تتسمع إلى هذا الوصف بخيالك وإحساسك، ولا ريب أنك تتصوره الآن منظراً حيّاً في فلاة واسعة، أو على مسرح يعجّ بالحركة الصاخبة. وقد استنفد بيان هذه الصورة بضعة أسطر كما رأيت. فتأمل كيف صاغها بيان التنزيل في أقل من سطر واحد!..

٣ ـ وصف الله المنافقين بالجبن وبيّن أن ما يتظاهرون به من الشجاعة كذب، وأن الرعب سرعان ما يستولي على قلوبهم فينهزمون، لا يلوون على شيء. فانظر كيف عبّر عن هذا المعنى: ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلاً، لولَّوا إليه وهم يجمحون ﴾[٢].

فتأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة، وأخرج هذا المعنى الفكري في صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب، فهي تنقذف هنا وهناك بحثاً عن المأمن والمهرب في حركات عجيبة غريبة. وقد يحسب صاحب النظرة

---

(١) الأنفال: ٥٧.

(٢) التوبة: ٥٧.

العجلى أن هذه الكلمات الثلاث: ملجأ، مغارات، مدَّخل، مترادفة المعنى. ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، بل كلٌّ منها تصوِّر في الذهن شكلاً معيناً للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف، بدءاً من الشكل الطبيعي المألوف وهو الملجأ العادي من دار أو غرفة أو جماعة من الناس، إلى الشكل الذي لا يألفه ويرضيه إلا من اشتد خوفه وهو المغارة في باطن الأرض أو بطن الجبل، إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والإلف من كليهما وهو: المدَّخل، أي المكان الضيق الذي لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ولا يكاد أن يستقر فيه إلا تضاؤلاً والتصاقاً. وانظر كيف تؤدي كلمة «مدَّخلاً» هذه الصورة وتجسمها في الحسّ بوزنها وجرسها وشدة الدال فيها، ثم تأمل فيما تصوره في خيالك كلمة: ﴿ لولَّوا إليه ﴾. ثم فيما تتركه كلمة: ﴿ يجمحون ﴾ من الصورة الضاحكة الساخرة، ثم تأمل في صورة هاتين الكلمتين، فمهما شرحت وفصّلت، فلن أبين أكثر مما يبينه خيالك وشعورك وأنت تتأمل جرسهما ووقعهما.

ثم ارجع النظر مرة أخرى إلى الجملة كلها لتبصر الريشة الإلهية العجيبة وهي تصوِّر الهزيمة والجبن والقلق النفسي هذا التصوير المتحرك الساخر، وكيف تتجسد الصورة في خيالك حتى لتكاد العين الباصرة تراها واليد اللامسة تتقراها.

٤ ـ أخبر الله رسوله أن مسؤولية كل عمل متلبسة بصاحبه خيراً كان أم شرّاً؛ فلا يُسأل إنسان عمّا لم يعلم، ولا ينبعث الشر من مصدر طيرة أو شؤم، وإنما ينبعث من فاعله الذي فعله. فتأمل كيف عبّر عن هذا المعنى: ﴿ وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾[1]. إذا تأملت في هذا التعبير، بعد أن علمت أن العرب في الجاهلية كانوا يرون في مظاهر بعض الأنواء والحيوانات والطيور سبباً وباعثاً للمصائب والشرور، تخيلت صورة إنسان قد تجمعت كل أسباب الشؤم والطيرة المختلفة فالتصقت به وتعلقت بعنقه، ليدل بذلك على أن الذي

---

(١) الإسراء: ٢٣.

يقوده إلى الشر إنما هو ذاته نفسها، وإذا كان لا بدّ أن هناك مصدر طيرة وشؤم، فإنه على كل حال مصدر متعلق به ولا ينفك عنه.

وإنما أخرج المعنى بهذا المظهر الحسيّ الملموس، ليكون أوقع في النفس وأدلّ على المقصود وليحمل التعبير معنى السخرية بأوهام الجاهلية وسخافتها.

٥ ـ أخبر الله تعالى أنه جعل من الليل والنهار دليلين على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وأنه جعل الليل لتهدأ فيه الرِجْل ويستريح الإنسان، وجعل النهار مضيئاً ليتهيأ فيه السعي والعمل، ولكنه لم يعبّر عن هذا المعنى بهذه الطريقة وإنما قال: ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبصرة لتبتغوا فضلاً مِنْ ربكم ولتعْلموا عدد السنينَ والحساب ﴾[1] وإذا قرأتِ هذه الآية، أسرع خيالك فتصور حيوانين أو شبحين عظيمين أحدهما يظل مطبقاً عينيه لا يفتحهما على النور، والآخر يظل فاتحاً عينيه لا يطبقهما على ظلام. فأما الأول فيتجسد فيه ظلام الليل وانطواؤه وهدوؤه، والآخر يتجسد فيه ضياء النهار وحركته والتماعه.

٦ ـ أخبر الله تعالى عن كراهية أهل الجاهلية للأنثى إذ تولد في دار أحدهم وبيَّن أن الكرب يأخذ من أحدهم كل مأخذ إذا ما اخبر بانثى قد ولدت له، وأنه يراوده فكرة أن يدفنها في التراب حيّة، ولكنه عبّر عن هذا الشعور النفسي بأسلوب تصويري تسجد له البلاغة في أسمى مظاهرها وألوانها. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، أيُمسكه على هُونٍ أم يَدُسُه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[2].

فقد صوّر تهكم من حوله به بكلمة ﴿ بُشِّر ﴾ ثم صوّر شدة الكرب الذي انتابه بقوله: ﴿ ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم ﴾، ثم صوّر وقع النبأ

---

(١) الإسراء: ١٢.

(٢) النحل: ٥٨.

الذي حمله إليه القوم مبشرين ـ أي متهكمين ومشفقين ـ بقوله: ﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به ﴾، ثم صوّر الحيرة التي تراوده ويطوف بخاطره بقوله: ﴿ أيُمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾. وردِّدِ النظر والفكر في هذه الكلمة: يدسّه، لتبصر كيف أنها تشفُّ عن الغيظ والعصبية والشدة وقد تلبست بها حالة الرجل وأعضاؤه، وكيف تصور لك الدفع المغتاظ للرحمة في مظهرها الضعيف المتألم المسالم!..

٧ ـ أخبر الله الناس أنه ما من خبر من الغيبيات التي أخبر الله بها إلا وسيأتي يوم يتضح فيه صدقه ووقوعه كما أخبر به. فانظر إلى التعبير القرآني عن ذلك: ﴿ لكل نبأ مستقرٌ وسوف تعلمون ﴾[1]، وأنا فما أذكر أنني قرأت هذه الآية مرة إلا وتخيلت أن في جو السماء شبحاً يسبح في أنحائه لا يدري الناس ما هو، والكل رافع رأسه محدق بنظره يتأمله وكلٌ منهم يتوهمه حسبما يخيل إليه؛ والجميع ينتظرون ساعة هبوطه واستقراره في الأرض ليعلموا حقيقته وليتخلصوا من أوهامهم وتخيلاتهم فيه. إن الله عزّ وجلّ يصوِّر الإخبار عن قيام الساعة وما يلوذ بها من الغيبيات، بصورة هذا الشيء الذي ظاف حوله لغو كثير من القول، وأبى كثير من الناس أن يؤمنوا بحقيقته تبعاً لما جاء من كلام رب العالمين، ليقول لهم إن لهذا الشيء مكاناً وزماناً يستقر فيهما عياناً أمام أبصاركم، ولسوف تعلمون حينئذ، دون أن يفيدكم العلم.

وتُصوِّر مثل هذا التصوير كلمة ﴿ مُرساها ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو... ﴾[2] فالساعة في تعبير الآية كالسفينة محجوبة عن الأعيان في غمار بحر عظيم متلاطم، والمنكرون يستعجلون في طلب إرسائها عند الشاطىء ليشاهدوا حقيقتها بأعينهم.

٨ ـ بيّن الله عزّ وجلّ أن الأموات سوف يبعثون من قبورهم وتعود إليهم الحياة

---

(١) الأنعام: ٦٧.

(٢) الأعراف: ١٨٧.

ليواجهوا جزاءهم، وأن ذلك يسيرٌ على الله عزّ وجلّ، فجاء التعبير القرآني عن ذلك بهذا الشكل: ﴿ يوم تَشقَّقُ الأرضُ عنهم سراعاً، ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ ﴾[1]. ولا ريب أنك إذا قرأت هذه الآية تصورت أمامك أرضاً واسعة المدى تتشقق عن أشخاص هنا وهناك يخرجون منها ليسرعوا إلى حيث لا يدرون. أجل، فالآية تترك في ذهن القارىء هذه الصورة الحيّة المتحركة، ليتصور الأمر البعيد واقعاً يشاهده أمام عينيه في بساطة ويسر.

٩ ـ قرّر الله عزّ وجلّ أن من سنّته في الكون أن يعرض الأمم للمصائب والمحن، فإن لم يتنبهوا بذلك للخضوع والتوبة والتضرّع إلى الله، غمسهم الله تعالى في أصناف الملذات، حتى إذا فرحوا بذلك واستغرقوا في لهوهم وانشغالهم عن الله أهلكهم الله على حين غرّة، فقال في ذلك: ﴿ فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذْناهم بغتة، فإذا هم مُبْلسون ﴾[2].

فانظر إلى قوله: ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ لكأن أسباب النعيم والترف واللذائذ ممتلئة في مخازن من وراء أبواب، فما هو إلا أن فتحت هذه الأبواب حتى اندلقت عليهم من كل جانب ومن كل نوع.. ثم تأمل في قوله: ﴿ أخذناهم ﴾ وأي تصوير لضآلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة: أخذناهم.

ثم انظر كيف يتقارب الزمن الطويل متحركاً متنقلاً من مشهد إلى آخر في هذه الآية، وذلك بوحي وتصوير تتابع هذه الأحرف والكلمات: ﴿ فلما.. حتى إذا.. بغتة.. فإذا هم.. ﴾ مشهد من وراء آخر، ومرحلة تلي ما قبلها، قد تكون الفترة بينهما طويلة، ولكن التعبير القرآني يقارب ما بين هذه المراحل في بضع كلمات، ويصوِّرها في ذهن القارىء، وكأنها تاريخ سريع يمرّ من أمامه.

---

(١) ق: ٤٤.

(٢) الأنعام: ٤٤.

١٠ ـ ومن التصوير الرائع البديع الذي تنفرد به كلمة واحدة قوله تعالى: ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلْتم إلى الأرض ﴾[١]. والمقصود الأصلي هو استنكار تكاسل بعض المسلمين أمام داعي الجهاد في سبيل الله. ولكن انظر إلى الأداة التعبيرية عن ذلك ﴿ اثّاقلتم إلى الأرض ﴾. لقد أخرج معنى الكسل الذي هو من مدركات العقل في صورة جرم ثقيل كلما حاولت أن ترتفع به إلى الأعلى انحطّ بك إلى الأرض، وهو من الثقل بحيث لا ينفك عالقاً وملتصقاً بكل ما هو دون، من أرض وغيرها. وكما يقول سيد قطب: لو أنك حذفت الشدة من الكلمة فقلت «تَثَاقلتم» لخفّ الجرس وضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظ واستقلّ برسمها[٢].

١١ ـ أنبأنا الله تعالى عن دخول هذا الكون كله تحت سلطانه وأنه ليس إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لملكه وعظيم قدرته، ولكنه وضع هذا المعنى في صورة مخيَّلة محسوسة يمتلىء بها الخيال والحس، ويذوب فيها الشعور. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وما قدَرُوا اللَّهَ حقَّ قدْرِهِ، والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسموات مطويات بيمينه.. ﴾[٣].

فأنت لست من هذه الآية أمام كلمات الملك والسلطان والعظمة ونحوها مما هو من مفهومات الفكر المتأمل.. ولكنك أمام الهول العجيب الذي يذهل له الحس وتخشع له المشاعر: الأرض جميعاً شيء صغير في قبضة الله والسموات كلها بأجرامها العظيمة قد طويت كما يطوى البساط أو الصفيحة، فهي ليست إلا جرماً صغيراً لا تكاد تدركه العين مخبوءةً في يمين الله عزّ وجلّ. وليس هناك من يمين، ولا قبضة، ولا طي بالمعنى الحسي المعروف، ولكنه التخييل والتجسيم للمعنى الذهني، كي يفيض الشعور والخيال إحساساً به.

---

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) انظر التصوير الفني وما ذكره سيد قطب في تحليل هذه الآية: ص ٨٧.

(٣) الزمر: ٦٧.

١٢ ـ وربما اقتضى المشهد في بعض الأحيان أن تمثل الصورة أمام الخيال شاخصة صامتة لا حراك فيها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عُرُوشها وبئرٍ مُعطَّلة وقصر مشيد ﴾[1] والمعنى المقصود لفت النظر إلى الأمم التي جاءت ومضت وتركت آثارها من ورائها. ولكنه أقام من هذه اللوحة التصويرية في الآية تعبيراً مجسماً له.

وهي صورة صامتة شاخصة، تبصر فيها بيوتاً خالية قد سقط بعضها على بعض.. وتبصر في جانب منها بئراً متروكة معطلة، وقصراً لا تزال فيه جدران باقية قائمة..

ولا والله، ما تلوتُ هذه الآية مرة إلا ورأيتني أمام لوحة فنية رائعة صوّرتها كلمات هذه الآية في رسم معبِّر نادر، يجلله صمت رهيب، تلوح عليه آثار القرون والسنين!!..

* * *

وبعد، فهذه أمثلة قليلة، قِسْ كلام القرآن كله عليها.

ولن نستطيع أن نفيض في بيان الأمثلة والنماذج؛ فقد التزمنا في هذا الكتاب القصد في البحث، كي يتسع المجال لعرض المسائل والبحوث الأخرى، ولو أردنا أن نستقصي الكلام في تصوير القرآن ومقوِّماته ومظاهره، لجفّ المداد ونفد الورق دون أن نوفي البحث حقه: ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾.

فإن كنت قد ألقيت السمع إلى ما قلنا وأنت شهيد بعقلك الصافي المتحرر، وقفت على الحق في كل الذي ذكرنا، وأدركت أن نظيره مثله مما لم نقل، وأيقنت أن هذه المعجزة التي تصورت كلاماً يتلى ليست مما يصوغه بشر، ولا ينبغي أن تكون مادة كذِب كذَب بها محمد ﷺ على الله، بعد أن عاش أربعين عاماً يتوقّى الكذب فيها على الناس.

---

(١) الحج: ٤٥.

أما إن كنت تتسمع إلى ما أقول بأُذن يجثم من ورائها عناد متحكمٌ، أو غيظ متغلب، أو غرض مستعبد، أو هوى لا قبل لك به، فليس للمنطق أيّ حيلة مع مثل هذه الأُذن وإن بدت أنها صاغية. ولقد جسّد الله عزّ وجلّ هذا الغيظ والغرض والهوى، في صورة محسوسة منظورة، إذ قال: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعْرُجُون، لقالوا إنما سُكرت أبصارُنا بل نحنُ قوم مسحورون ﴾[1].

* * *

(١) الحجر. ١٤ و١٥، هذا وإن شئت أن تقف على مزيد من الأمثلة للتصوير الفني في القرآن فارجع إلى كتاب التصوير الفني لسيد قطب، ففيه فيض كبير من الأمثلة. هذا وقد حرصت أن تكون غالب الأمثلة التي أتيت بها مما لم يذكره سيد قطب، وذلك حتى لا يتوهم متوهم أن مدار التصوير في القرآن على طائفة من الآيات المعينة لا مزيد عليها. بل هي كما قلنا الطريقة المتبعة في التعبير القرآني دائما.

obeikandl.com

الأمثال في القرآن

ضرْب المثل في غضون الكلام، يعتبر لوناً متميزاً من ألوان التشبيه ويعتبر أحياناً لوناً خاصّاً من ألوان الاستعارة، فإن كان الممثل له مذكوراً في الكلام كان تشبيهاً، وإن كان محذوفاً فهو استعارة.

وبين المثل الذي يضرب والقصة التي تورد، فارق كبير، وإن كان يجمعهما قدر مشترك من تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة وقياس الحال على الحال.

فالأمثال لا يشترط صحتها على أنها واقعة تاريخية ثابتة: وإنما يشترط فقط إمكان صحتها أي وقوعها، حتى يتسنى للذهن تصورها كما لو أنها وقعت فعلاً، فمن أجل ذلك يمكن الربط بين المثال والمعنى الممثل له، حيث يلبس نسيجاً مادياً محسوساً يتصوره الذهن ويألفه الخيال.

ولكن الأمثال لا يشترط أيضاً عدم صحتها في نطاق الواقع التاريخي فربما ضرب المثل بقصة واقعة. وفي القرآن من ذلك كثير. وإنما تسمى القصة عندئذ تمثيلاً، لأنها سيقت مساق التمثيل بها، ولم تورد على أساس الإخبار عنها.

وفي القرآن نافذة عريضة كبرى على هذه الأمثلة. بل قلّما يخلو معنىً من المعاني التي يعرضها القرآن، من الارتباط بمثال مقرّب يكسوه ثوباً يُحَسُّ به ويتجسد فيه.

ولسنا الآن بصدد تحليل القيمة البلاغية لضرب الأمثال، وبيان كيفية استعمالها والاستفادة منها في أنواع الحديث وأصول المخاطبات. وإنما الذي

يهمنا في هذا الصدد أن نتلمس أبرز الخصائص التي تظهر في أمثلة القرآن، وعلاقة ذلك ببلاغته وإعجازه.

ونستطيع أن نوجز هذه الخصائص في الأمور التالية:

أولاً ـ تعتبر أمثلة القرآن على اختلافها، لوحات فنية رائعة لتصوير مشاهد الطبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وفي هذه اللوحات مشاهد أَلِفتها العرب وعرفتها في حياتها النوعية الخاصة، وفيها ما لم تعرفه ولا رأته ولا سمعت به مما قد يعرفه بعض الأمم والشعوب الأخرى. فالقرآن إذ يضرب الأمثلة بهذه المشاهد المنتزعة من مظاهر الكون وصوره، يؤلِّف بين القيم والمبادىء المجردة التي تنزل من أجلها، والمشاهد الطبيعية التي يعيش الإنسان في أكنافها؛ وفي ذلك من إبراز وحدة الحقائق الكونية وترابطها الكلي ببعضها ما يطول شرحه ويعظم خطره، وليس لنا في هذه العجالة سبيل إلى بسط القول في ذلك.

ثانياً ـ تأخذ الأمثلة في أغلب الأحيان طابع القصة في عرض الجزئيات وتفصيل صفاتها، وذلك على خلاف المألوف عند العرب من تكثيف المثال وعرضه في أقل قدر ممكن من الكلمات. فالعرب قد يضربون المثل للشيء الخادع بالسراب، دون تعريج على أيّ تفصيل في المثال أو بسط لصورته، ولكن القرآن عندما يضرب به المثل يبسط منه صورة حيّة يتراءى فيها كيف ينخدع الظمآن به، ثم يسعى وراءه، حتى إذا جاءه فوجىء بأنه ليس شيئاً، ووجد بدلاً عنه ثمرة انخداعه من الجهد الضائع والانقطاع عن الرفقة والطريق:

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسَبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ووجد اللَّهَ عنده فوفَّاه حسابَه والله سريع الحساب ﴾ (النور: ٣٩).

ثالثاً ـ كثيراً ما تأتي أمثلة القرآن كلاماً كاملاً مستقلاً بذاته، أي دون ذكر للمعنى الممثل له على غرار ما هو معروف في مألوف اللغة العربية وأسلوبها.

وإنما يكون المعنى الممثّل له في هذه الحال مطوياً، يشار إليه في تضاعيف المثال ذاته، بحيث لا يجهل السامع أو القارىء المعنى الكلي الذي سيق له

المثال، وذلك على غرار الاستعارة وكيفية دلالتها على المعنى الأصلي المقصود. ولا ريب أن سَوْق المثال بهذا الأسلوب يأتي أبلغ وألصق بالمعنى المراد، إذا لم يكن في سياق الكلام ما يدعو إلى التصريح به.

فمن هذا القبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما يستوي البحران، هذا عذْب فرات سائغ شرابُه وهذا ملحٌ أُجاج ﴾[1] فقد ضرب الله مثال البحرين للمؤمن والكافر، والحديث عن المؤمن والكافر مطوي في تضاعيف المثال، يدلّ عليه السياق.

ومنه أيضاً قوله عزّ وجلّ: ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شُركاءُ مُتشاكسون ورجلاً سَلَماً لرجل، هل يستويان مثلاً ﴾[2] فهو مثال للفرق بين من لم يتخذ مع الله شريكاً فهو لا يبغي الخير ولا يتقي الضرّ إلّا من قِبَله، ومن ثم فهو لا يسعى لإرضاء غيره، ومن اتخذ مع الله شركاء له فقلبه أوزاع بينهم، وهم فيما بينهم متشاكسون متنافسون على مكاسب الألوهية ومقتضياتها، فهو لا يدري بأيّهم يربط قلبه ولأيّهم يعطي ولاءه!.. ولكن هذا المعنى المقصود مطوي في المثال الذي ضربه الله تعالى، وهو مثال رجلين أحدهما يتعلق به شركاء متشاكسون متنافسون كلٌّ يدّعي انفراده بالسلطان الكامل عليه، والآخر موصول الولاء بشخص واحد فهو سلَم له ومسؤول تجاهه.

ومنه أيضاً قوله عزّ وجلّ: ﴿ والبلد الطيب يَخْرُج نباتُه بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يَخْرج إلا نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ (الأعراف: ٥٨). وإنما هو مثال للقلوب، فقلب سليم يقبل الموعظة والذكرى، وقلب فاسق قاسٍ ينبو عن ذلك.

* * *

هذه أبرز خصائص الأمثال في كتاب الله تعالى.

ولنعرض الآن نماذج مختلفة لهذه الأمثلة، نتلمس من خلالها القيمة

---

(١) فاطر: ١٣.

(٢) الزمر: ٢٩.

البلاغية التي فيها، وسمة الإعجاز التي تتميز بها، والأسلوب القرآني في تقريب البعيد، وتجسيد المجردات، وتهويل ما ينبغي تهويله من معاني التهديد والوعيد:

١ ـ يقول الله تعالى في تمثيل حال المنافقين:

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظُلماتٍ لا يبصرون. صمٌّ بكمٌ عمي فهم لا يرجعون أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلَّما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾.

فهما مثالان، يدل كلٌّ منهما في الجملة على أن شأن المنافق أن يتحلَّى بظاهر من الدين ليكسب منه غنائمه ويتقي مغارمه، ولكنه يبوء بنهاية تنقلب غنائمه فيها وبالاً عليه، فلا تكسبه خيراً ولا تحرز له نفعاً.

وانظر كيف يعبّر عن ذلك المثالُ الأول: إن حالهم أشبه بحال من أشعل ناراً ليستضيء بها، ولكنها ما كادت تضيء ما حوله وما كاد يطمئن إلى إمكان الاستفادة منها، حتى انطفأت وعاد ما حولها إلى ظلام وبقي صاحبها يتيه بين الوحشة والحسرة.

وهذا هو معنى المثال الثاني: أو إن حالهم كحال أصحاب مطر غزيرة في ليلة ظلماء مليئة بوميض البرق وزمجرة الرعد، إذا أومض عليهم البرق كاد أن يتخطف منهم أبصارهم وإذا داهمهم قصف الرعد جعلوا أصابعهم في آذانهم من مخافته واتقائه. وهم أثناء ذلك يحاولون أن يستفيدوا من ومضات النور الذي يلمع لهم بين الحين والآخر، فيسيرون في ضيائه كلما أومض، ويتربصون بأنفسهم كلما أظلم.

أي إنهم متلبسون في ظاهرهم بالإسلام الذي هو كصيِّب من المطر، ولكنهم في قلق شديد من تبعاته ووظائفه وأحكامه، وعلى طمع من التعلّق بمنافعه وخيراته الدنيوية، فهم لا يزالون كذلك: يسرعون للاستفادة من

ثماره كلما لاحت لهم، وينكمشون أو يتوارون من تبعاته ووظائفه وزواجره كلما أقبلت تواجههم!..

والتمثيل هنا مسوق في تفصيل صوره وأجزائه مساق وصف قصصي كما ترى، وهو من خصائص أمثلة القرآن كما قد ذكرنا آنفاً. ثم هو مبني على تشبيه مجموع حالة بمجموع حالة أخرى دون النظر إلى مقارنة أو تشبيه أجزاء الحالين ببعضهما.

قال الزمخشري في شرح هذين التمثيلين: [والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه، أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيءٌ يقدر شبهه به، وهو القول الفحل والمذهب الجزل. بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها عن بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك، فتشبهها بنظائرها.. وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها..][1].

٢ ـ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعة يحسَبُه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد اللَّهَ عنده فوفَّاه حسابه والله سريعُ الحساب. أو كظُلُمات في بحر لُجِّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكَدْ يراها ومن لم يجعل اللَّهُ له نوراً فماله من نور ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠).

يشبه الله تعالى ما قد يبدو أنه مبرور من أعمال الكفار، في عدم فائدته وانقطاع الجدوى منه ـ إذ كان مؤسساً على باطل من الكفر بالله عزّ وجلّ ـ بمثالين اثنين، أحدهما سراب[2] يراه الناظر بالفلاة، وقد غلبه العطش فيحسبه ماء، حتى إذا أضنى نفسه في المجيء إلى مكانه ضاع عنه

---

(١) الكشاف: ١/٢١٢ و٢١٣.

(٢) السراب: ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري. والقيعة والقاع المنبسط المستوى من الأرض.

ولم يجده شيئاً. ويمزج البيان الإلهي في آخر هذا التمثيل بين المشبَّه والمشبه به، أو قل إنه يؤلف بينهما في الربط بنهاية واحدة، وذلك عندما يقول: ووجد اللَّهَ عنده فوفّاه حسابه. فقد كان الحديث إلى ما قبل هذه الجملة عن ظمآن اغترّ بسراب، وفي نهاية المثل اتضح أن الظمآن لم يكن غير هذا الكافر الذي اغترّ بظاهر أعماله الإنسانية، وراح ينتظر ثمراتها وآثارها الخيِّرة، حتى إذا جاء يوم الحساب وحانت ساعة القطاف، راعه أنه لم يجد لأعماله الصالحة أثراً، بل وجد بدلاً منها إلهه الذي لم يكن يتوقع أن يراه، ووفّاه حسابه على الحقائق التي كان يبطنها في قلبه لا على المظهر الزائف الذي كان يتجلى به بين قومه وأصحابه.

أما المثال الثاني فهو بحر هائل بعيد الغور تكاثفت فوقه ظلمات متراكمة تألفت من ظلمة البحر ذاته وظلمة أمواجه العاتية وظلمة السُحُب الداكنة من فوقه؛ فهي ظلمات ثلاث تراكمت بعضها فوق بعضها إلى أن غشيت جو السماء وكاد الرجل أن يضلّ فيها حتى عن ذاته.

وإنما الظلام في المعنى الممثّل له ظلام الكفر بالله عزّ وجلّ؛ وإنما القصد أن الكفر إذا حاق بالقلب اصطبغت الأعمال كلها بلونه وتأثرت بظلامه ولم يعد في شيء منها بصيص ضياء، فهي لا تزيد صاحبها إلا ضلالاً ولا تكسبه إلا مزيداً من الغواية والخذلان!..

والمثل ـ كما تعلم ـ لا يعرفه إلا من يعبُر المحيطات من البحارة وأمثالهم، فهناك يتكاثف مثل هذا الظلام تبعاً لحالات وظروف معينة فهو شيء لا يعرفه سكان الجزيرة العربية ولا ما حولها. فالتمثيل به ينطوي على دليل من أهم أدلة الإعجاز، ويؤكد ما ينبغي أن يعلمه كل مسلم من أن هذا الكتاب إنما هو كلام الله عزّ وجلّ، لم يتدخل في صياغة شيء منه أي بشر من الناس كائناً من كان.

* * *

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتْبعه الشيطانُ فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض

واتّبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركْه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصُص لعلّهم يتفكرون ﴾[1].

ضرب الله تعالى هذا النبأ مثلاً لكفار بني إسرائيل، إذ علموا نبوّة سيدنا محمد ﷺ حتى إنهم كانوا يستفتحون به على المشركين، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

والنبأ في الآية، نبأ واحدٍ من علماء بني إسرائيل وقيل من الكنعانيين اسمه بلعام بن باعوراء، أوتي علم بعض كتب الله تعالى، ولكنه انسلخ منها وركب متن الضلالة، إذ أخلد إلى متاع الدنيا وفضّل الركون إلى أهوائها وشهواتها. فلم ينفعه إذ ذاك علمه. وغدا في تعلقه بالدنيا كالكلب يلهث في كل حال إن جاع أو شبع، إن اهتاج أو تُرك، وهو من أبرز الحيوانات التي تُعرف بهذا الشأن. أي فغدا الرجل يلهث وراء الدنيا ومغانمها في كل حال لا يقعده عن ذلك شبع ولا غنى.

فمثل هؤلاء اليهود في ضلالتهم عن الحق الذي لم يجهلوه، بسبب ميلهم إلى المغانم الدنيوية، كمثل ذلك الرجل الذي لم ينفعه علمه لما أخلد إلى الدنيا وأهوائها، بل لم يعد يغنيه امتلاؤه وشبعه عن مواصلة السعي وراءها والانحطاط في شهواتها.

وهذا المثل ـ كما ترى ـ منتزع من قصة واقعة، وليس مجرد فرضية مؤلفة. فهو مثال وقصة بآنٍ واحد، وإنما عدّدناها في الأمثال لا في القصص لأنها سيقت مساق المثل، إذ جردت من تفاصيلها القصصية واعتصرت منها معالم العبرة مكثفة موجزة، ولأن الله سمّاه مثلاً إذ قال في نهاية الآية: ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا.

ومن هذا القبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴾[2] إلى آخر

---

(١) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) الكهف: ٣١ ـ ٤٢.

قوله تعالى: ﴿ وأحيط بثمرة ﴾.. الآية. فهي قصة ذات تفصيل وأحداث ومراحل، ولكنها سيقت مساق المثل فكانت مثالاً من أمثلة القرآن، وكانت في الوقت نفسه قصة واقعة يجب التصديق بها.

ومنه أيضاً قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصْرِمُنّها مصبحين.. ﴾[1] إلى آخر الآيات. فهي أيضاً قصة واقعة ولكنها سيقت مساق المثل ولم تورد على أساس مجرد الإخبار عنها.

ولقد اشتهى بعض الكاتبين أن يصطنع اللبس بين المثل الفرضي الذي يورده القرآن والقصة الواقعية التي يخبر عنها، ثم حلّ المشكلة المصطنعة بأن اعتبر قصص القرآن كلها مجرد أمثال سيقت للبيان والتقريب، ولم تذكر للحمل على التصديق بما في مضمونها!..

والحقيقة أنه لا يوجد أي لَبْس بين المثال الفرضي والقصة الحقيقية، وما رأينا عالماً ولا مفسراً ممّن مضى قبلنا أحسّ بشيء من هذا اللَّبْس أو تكلم عنه. فما من عاقل إلا وهو يدرك أن قصة يوسف، وموسى، ونوح، ومريم، وعاد، وثمود، ومدين، أخبار ثابتة لا يلحقها الرَيْب ولا يطولها التأويل، وما من قصة منها إلا ويوجد بين يديها أو من خلفها ما ينبّه القارىء إلى واقعيتها وصدقها وإلى أنها ليست فرضية من فرضيات الوهم والخيال، كقوله تعالى: نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق[2]. وكقوله: نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن[3]. وكقوله عزّ وجلّ: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون[4]. وكقوله: تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين[5].

---

(١) ن: ١٧ ـ ٣٢.
(٢) الكهف: ١٣.
(٣) يوسف: ٣.
(٤) يوسف: ١٠٢.
(٥) هود: ٤٩.

ولكن الكاتب الذي فعل هذا، شاقه أن يخلد سخافة صاحب «في الشعر الجاهلي» عسى أن يطبّل الناس له، كما قد طبّلوا لذاك، سواء جاء ذلك التطبيل ضرباً على القفا أو صفعاً من الأمام، ما دام أنه تطبيل يذهب بالصيت ويشهره بين عامة الناس.

* * *

وبعد، فأحسب أنني لست بحاجة إلى أن أُطيل في عرض النماذج من أمثلة القرآن. فالاستقصاء عسير، والنموذج يكتفي فيه بأقلّ مما أوردناه.

والغرض أن تدرك من وراء هذا الذي ذكرناه مدى أهمية الأمثلة في كتاب الله تعالى، وقد أفردها بالتأليف الإمام أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠) وأن تتنبه إلى أن جانباً كبيراً من الإعجاز القرآني إنما يطلّ من هذه الأمثال من ناحيتي الأسلوب والمضمون، وأن تعلم بأن المعنى مهما ألبس ثوباً مطرزاً من البيان والإشراق، فإنه يظل بعيداً عن مرأى العين والخيال حتى يتجسد في مثال مما يمسّه الحسّ والشعور.

ولأضع أمامك تحقيقاً لهذا الحق وخاتمة لهذا البحث، وهو خلاصة ما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجاني في هذا المقام:

[واعلم أن ما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبَّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها وشبَّ من نارها.. فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم.. وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر..

وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول البحتري:

دانٍ على أيدي العفاة وشاسع ... عن كل نِدٍّ في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه ... للعصبة السارين جِدٌّ قريب

وفكّر في حالك وحال المعنى معك، وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني ولم تتدبر نُصرتَه إياه وتمثيله له فيما يملي على الإنسان عيناه ويؤدي إليه

ناظراه، ثم قِسْهما على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرفيه، فإنك تعلم بُعد ما بين حالتيك، وشدّة تفاوتهما في تمكّن المعنى لديك، وتحبِّبه إليك، ونبله في نفسك؛ وتوفيره لأُنسك، وتحكم لي بالصدق فيما قلت، وبالحق فيما ادّعيت][1].

* * *

(١) من أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني باختصار: ص ١٠١ و١٠٢.

obeikandl.com

القِصَّــةُ في القُــرْآن

أغراضها ، خصائصها

موضوع القصة في القرآن، يشترك مع موضوعات القرآن الأخرى، في القصد إلى تحقيق الغرض الكلّي الذي تنزل القرآن من أجله. فللقصة في القرآن إذاً غرض أساسي، هو تحقيق المعنى الكلي الذي جاء به القرآن إلى الناس.

ولكنَّ لها، إلى جانب ذلك، أغراضاً فرعية، لا تخرج في هدفها الأول عن ذلك الغرض الأساسي.

ونحن نلخص هذه الأغراض في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إثبات الوحي الإلٰهي والرسالة النبوية لرسول الله ﷺ. فقد كان عليه الصلاة والسلام، كما علمت، أُمّياً. وقد علم التاريخُ ورجاله أنه لم يقصد إلى أحد من علماء اليهودية أو النصرانية يسمع منهم أخبار عيسى وموسى وغيرهما من الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه. ولو فعل ذلك، لما كتمه عن الناس ولا موَّه عليهم، كيف وقد عُرف بين قومه طوال أربعين سنة من العمر بالأمانة والصدق والوفاء مع الناس.

فلما جاء القرآن بقصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة وتفصيلاً مع ما أثبته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص، كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى، ولكنه وحيٌ من الله عزّ وجلّ[1].

---

(١) انظر مبحث تاريخ الوحدانية في كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ص: ١٩٤ وما بعد.

obeikandi.com

ولتنبيه الناس إلى هذه الدلالة، يعقّب الله عزّ وجلّ على كل قصة ينتهي من عرضها بما يثير الانتباه إلى أن هذه المعلومات لا يمكن أن تكون قد أتت إلى محمد عليه الصلاة والسلام إلّا من نافذة الوحي المجرد فهو يقول بعد الانتهاء من ذكر قصة مريم وولادتها وكفالة زكريا لها: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾[1] ويقول بعد عرض قصة يوسف بتفصيلها الواسع المعروف ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾[2].

ويقول، بعد ذكر قصة موسى وفرعون وما يتعلق بهما من أخبار: ﴿كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾[3] ويسرد علينا قصة موسى نفسها بتفصيل أوسع، وأسلوب مختلف في سورة القصص، حتى إذا انتهى من بيانها وتصويرها، عاد يخاطب محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الآيات:

﴿وما كنتَ بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين. ولكنّا أنشأنا قُروناً فتطاول عليهم العمُر، وما كنت ثاوياً في أهل مديْنَ تتلو عليهم آياتنا ولكنّا كنّا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يتذكرون﴾[4].

الأمر الثاني: العبرة والموعظة، وتأتي في أحد مظهرين:

الأول: بيان مدى قدرة الله تعالى وبالغ جبروته وسطوته، والكشف عمّا حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك، لتجبّرها وعنادها واستكبارها

---

(١) آل عمران: ٤٥.
(٢) يوسف: ١٠٢.
(٣) طه: ٩٩.
(٤) القصص: ٤٤ و٤٥ و٤٦.

على الحق. للتنبيه على أن مثل ذلك يوشك أن يقع بمن أبى إلا أن يمشي على دربهم متّبعاً خطاهم.

ومن الأمثلة على ذلك، تلك القصص المتتالية السريعة التي تقرأها في سورة: القمر. فقد سيقت على هذا المساق، وهو الكشف عن جبروت الله وبالغ قدرته، وأن أخذه للظالمين أليم شديد. ولذلك تجده عندما ينتهي من عرضها، الواحدة إثر الأخرى، ومن بيان ما حاق بكل أمة من الأمم الباغية من أنواع الدمار المختلفة، يتجه بالخطاب إلى الناس قائلاً: ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيُهزم الجمع ويولّون الدبُر ﴾[1].

ومن ذلك ما تقرأه من قصص الأمم الغابرة في سورة هود، فقد أُريد منها التنبيه إلى ضرورة عدم الاغترار بشيء مما يتخيله الإنسان في نفسه قوة أو علماً أو سلطاناً، وإلى أن الله تعالى إنما يمهل.. فإذا شاء أخذ. وإذا أخذ لم يفلت. ولذلك ختم البيان القرآني تلك القصص بهذه الآيات:

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك، منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد ﴾[2].

المظهر الثاني: التنبيه إلى أن الدين السماوي الذي بعث به الأنبياء واحد، وأن رسالات الرسل والأنبياء واحدة لا تعارض فيها ولا اختلاف.

ومن أمثلة ذلك، ما تقرؤه في سورة مريم من قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وكيفية ولادته، فهو يقول في آخرها: ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[3].

---

(١) القمر: ٥٣ و٤٤.

(٢) هود: ١٠٠ و١٠١ و١٠٢.

(٣) مريم: ٣٤ و٣٥.

ومن ذلك ما تقرأه في سورة الأعراف، من قصة عاد وثمود وأهل مدين، فهو يبدأ قصة كلٍّ من هذه الأمم ببيان أنه سبحانه وتعالى أرسل إليها رسولاً يخبرها بوجود الله تعالى وأنه واحد لا شريك له.

فهو يقول: ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[1].

ثم يقول: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه.. ﴾.

وإنما ذلك، ليتبين أن بعثة هؤلاء الرسل إنما كانت لتأكيد حقيقة واحدة لا خلاف حولها؛ بل إنه لا يجوز اختلافهم حولها، ما دام جميعهم أنبياء ورسلاً صادقين.

الأمر الثالث: تثبيت فؤاد الرسول ﷺ في مجال الدعوة، وحمله على الصبر على ما قد يراه من أذى قومه له، وبيان أن الله عزّ وجلّ ينصر رسله مهما نزل بهم من العذاب وطاف حولهم من البلاء.

ولا شك أن في ذكر أخبار الأنبياء من قبله وما كابدوه من إيذاء قومهم، ثم نصر الله عزّ وجلّ لهم، ما يدعوه إلى التحمّل والصبر ويبثّ في قلبه روحاً من الطمأنينة والنشاط.

تقرأ من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم.. ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد، إنه أوّاب ﴾[3].

وليس معنى هذا الذي ذكرناه من أغراض القصة القرآنية، أن هذه

---

(١) الأعراف: من ٦٥ إلى ٩٣.
(٢) الأحقاف: ٣٥.
(٣) ص: ١٧.

الأغراض موزّعة على النصوص القصصية في القرآن بحيث ينفرد كل نص منها بغرض، بل المراد هو اجتماع هذه الأغراض، أو الحِكم، التي ذكرناها معاً في مختلف النصوص القصصية في كتاب الله تعالى.

فهذا القدر الذي ذكرناه، يكفي في بيان أهداف القصة في القرآن.

* * *

منهج القصة في القرآن:

للقصة في القرآن منهج فريد، لا يشبه أي أسلوب من الأساليب المعهودة للقصة.

وهي تتبع في ذلك الأغراض التي سيقت من أجلها، مما عرضنا له آنفاً باختصار، فقد تبين لك أن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته، وإنما هي مسوقة لغرض ديني مهما تنوعت أقسامه وتفرعت أشكاله.

غير أنك قد علمت أن القرآن يتخذ من الجمال الفني أداة لتحقيق هذا الغرض، وما الإعجاز في مجموع مظاهره وأنواعه إلا أداة أيضاً لتحقيق المقصد الديني. فإن المتأمل إذا أدرك إعجازه آمن بأنه من عند الله، وإذا آمن بذلك اعتصم به وتمسك بما جاء فيه.

وهكذا، فإن المنهج الذي تسير عليه القصة في القرآن أثر من آثار الغرض الذي سيقت من أجله؛ وهو منهج يقوم ـ في الوقت نفسه ـ على أروع مظاهر الجمال الفني والإشراق البياني.

ويمكن أن نلخصها في المظاهر التالية:

المظهر الأول: التكرار. فأنت تجد أن القصة الواحدة قد تكررت في القرآن مرات عديدة، كقصة موسى وفرعون، وكقصة نوح، وقصة خلق آدم.

غير أن هذا ليس تعبيراً دقيقاً عن هذه الظاهرة. فالذي يحدث، عند تكرار القصة أكثر من مرة في القرآن، ليس هو التكرار بمعناه المعروف. إنما الذي يحدث هو أن القرآن يتناول من القصة الواحدة في كل مرة جانباً معيناً

فيها، وهو الجانب الذي تستدعيه المناسبة. وقد يحدث أن يتكرر عرض القصة نفسها أو عرض الجانب الواحد منها، بحسب الظاهر؛ ولكن تلك القصة أو ذلك الجانب منها ينطوي على عِبَر وعِظات متعددة، فيقتضي الغرض الديني أن يُعاد ذكرها عندما تأتي مناسبة كل عِبرة من عِبرها، فتلبس القصة في كل مرة من الأسلوب والإخراج التصويري ما يناسب المعنى الذي سيقت بصدده، حتى لكأنَّك منها أمام قصة جديدة لم تتكرر على مسامعك ولم تعرض أحداثها على خاطرك من قبل. وإذا أردت أن تقف على مثال لهذا فاقرأ سورة هود وأمعن فيما تجد فيها من قصص الأنبياء والأمم الغابرة ثم اقرأ سورة القمر، ففيها عَوْدٌ إلى تلك القصص نفسها، ولكنك تلاحظ من اختلاف الأسلوب والعرض وجرس الألفاظ ما يخيل إليك أنك أمام قصص وأخبار لم تكن تعلم بها، ثم إنك تجد فيها من المعاني والعظات ما لم تكن قد تنبّهت إليه في المرة الأولى.

المظهر الثاني: الاقتصار من حوادث القصة على ما يتعلق به الغرض. ومن أجل هذا فإنك قلّما تجد القرآن يسرد حوادث القصة سرداً تاريخياً، تبعاً لسلسلة الوقائع والأحداث. لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها الذي أوضحناه.

ولنعرض أمثلة لذلك،

قصّ علينا القرآن في سورة (الكهف) قصة أصحاب الكهف، فبدأها بهذه الآيات.

﴿ نحن نقُصُّ عليك نبأهم بالحقّ، إنَّهم فتيةٌ آمنُوا بربِّهم وزدناهُم هدىً، وربطْنا على قلوبهم إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربّ السَّموات والأرض لنْ ندْعوَ من دُونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا، هؤلاء قوْمنا اتَّخذوا منْ دونه آلهَةً، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّنٍ فمنْ أظْلمُ ممّن افترى على اللّه كذبا ﴾[1].

فأنت ترى أنه بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عزّ وجلّ ووحدانيته مخالفين ما عليه سائرهم من الشرك

---

(١) الكهف: ١٣ و١٤ و١٥

والكفر، وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم ويخرجوا من بينهم. ثم تمضي القصة على هذا المنوال.

فمن هم هؤلاء القوم؟ وفي أي بلدة كانوا يسكنون؟ وكم كان عدد هؤلاء الفتية؟ وما هي أسماؤهم؟

هذه أسئلة كان من مقتضى السرد التاريخي أن تجيب القصة عنها، ولكنها لو أوضحت ذلك وسارت في تتمتها على هذه الطريقة لما وفت بالغرض الديني الذي تستهدفه، ولانصرف فكر القارىء إلى تتبّع أحداث تاريخية يريد أن يعرفها، ولغفل بذلك عن العبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها.

وعندما يقصّ علينا القرآن قصة خلق آدم، وسكناه في الجنة ثم نزوله إلى الأرض، لا يتحدث عن وصف نزوله إلى الأرض وحياته فيها بأكثر من قوله: ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينّكم مني هُدىً فمن اتَّبع هدايَ فلا يَضِلُّ ولا يشقى ﴾[1].

ففي أي مكان من الأرض نزل؟ وكيف كانت معيشته وسكناه إذ ذاك؟ إن الاجابة على مثل هذه الاستيضاحات، وإن كانت مما يتشوف إليه الفكر، من شانها أن تقصي القارىء عن الانتباه إلى المقصود من سرد القصة. فحسبه، لكي لا يشتّ ذهنه وراء الأحداث التاريخية، أن يعلم من القصة ما يحمله على الانصياع للمقصد الديني الذي تنطوي عليه.

ولكن ربما اقتضى الغرض في بعض الأحيان أن تسرد القصة من أولها إلى آخرها، وأن يسير البيان القرآني في عرضها بأسلوب يتتبع سلسلة الوقائع والأحداث مع التعرّض لبيان كثير من حزئيات القصة التي لا تكاد تنطوي في الظاهر على عبرة أو فائدة توجيهية. وذلك عندما يكون الغرض الرئيسي هو إثبات الوحي الإلهي وتأكيد نبوّة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو عندما يكون الغرض تصحيح قصة أو حادثة تاريخية وقع فيها خلط أو لغو.

فمن قبيل الأول، قصة يوسف عليه السلام، فقد عرضت عرضاً

---

(١) طه: ١٢٣.

تفصيلياً تضمن حياة يوسف وتاريخها منذ طفولته إلى وفاته، وإنك لتجد في عرضها كثيراً من الصور الجزئية يتناولها القرآن بالكشف عنها، مما لا تكاد تجده في عرض القصص الأخرى. والمقصود من ذلك تنبيه الأذهان إلى الوحي الذي يؤيَّد به الرسول ﷺ، فيطلعه على ما لم يكن يعرف من قبل.

ومن قبيل الثاني قصة مريم في سورة آل عمران، وقصة ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام في سورة مريم. ففي كلٍّ من السورتين سرد تفصيلي للقصة وسير طبيعي مع مراحلها الواقعية، وكشف لمختلف الجوانب المتعلقة بها، إذ الغرض من عرض القصتين تصحيح ما ادّعاه بعض أهل الكتاب من بنوّة عيسى بن مريم لله عزّ وجلّ، فاقتضى ذلك عرض حقيقة الواقعة عرضاً مفصّلاً شافياً يزيل الغموض والإشكال ويكشف بطلان ما توهمه بعض الناس.

المظهر الثالث: إقحام النصائح والعظات في ثنايا القصة، وهو مظهر عام يشمل شتى الموضوعات القرآنية كما أوضحنا فيما مضى.

فالقرآن لا يدع القارىء يندمج مع موضوع من مواضيعه وينصرف إليه بكل تفكيره، دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات تنبهه إلى المقصود من كل هذه المباحث، وتربط على قلبه برباط من الخشية والمراقبة الإلهية عند قراءتها والتأمّل فيها.

فمن أجل ذلك لم تكن في القرآن فصول خاصة في التشريع، وفصول خاصة في سرد المغيبات من جنة ونار وما يتعلق بهما. وقد أوضحنا هذا عند الحديث عن خصائص الأسلوب القرآني فارجع إليه إن شئت.

ولنضع أمامك الآن بعض الأمثلة لدمج عبارات الموعظة والتذكير بخشية الله في ثنايا القصة وخلال سردها.

يقول الله تعالى في سورة طه، أثناء عرضه لقصة موسى مع فرعون: ﴿ قال فمن ربُّكما يا موسى، قال ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى، قال فما بالُ القُرون الأولى، قال عِلمُها عند ربي في كتاب لا يضِلُّ ربي ولا ينسى، الذي جعل لكم الأرضَ مَهْداً وسَلك لكم فيها سُبُلاً وأنزل لكم من

السماء ماء فأنْبَتْنا به أزواجاً من نباتٍ شتَّى، كلوا وارْعَوْا أنعامكم إنَّ في ذلك لآيات لأُولي النُّهى، منها خلقناكم وفيها نعيدُكم ومنها نُخرجُكم تارةً أخرى ﴾[1].

فقد تحولت الآيات هنا عن القصة وسردها إلى التذكير بعظمة الله ومظاهر ألوهيته ودلائل وجوده؛ حتى إن ضمير الخطاب فيها تحول عن خطاب موسى لفرعون إلى خطاب الله للناس كلهم كما تجد في سرد الآيات.

وفي سورة الكهف، تتابع الآيات عرض قصة أصحاب الكهف، وفي أثناء ذلك تلتفت عن القصة لتخاطب الرسول ﷺ والمسلمين ببعض الأوامر والعظات:

يقول الله تعالى: ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعهم كلبُهم ويقولون خمسة سادسُهم كلبهم رجماً بالغيْب، ويقولون سبعة وثامِنهم كلبهم، قُل ربي أعلمُ بعِدَّتهم ما يعْلمهم إلا قليل، فلا تُمارِ فيهم إلا مِرَاءً ظاهراً ولا تستفْتِ فيهم منهم أحداً، ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاءَ الله، واذكُرْ ربَّكَ إذا نسيت وقل عسى أن يَهدينِ ربي لأقربَ من هذا رَشداً ﴾[2].

فأنت ترى كيف هيّأت الآيات أثناء عرض القصة مناسبة لتوجيه هذه العظات إلى رسول الله ﷺ ليسمعها المسلمون فيتعظوا ويتمسكوا بها، ثم ما هو إلا أن يعود السياق إلى تتميم القصة بعد ذلك.

المظهر الرابع: العرض التصويري، فأسلوب القرآن عند ذكر قصة من القصص، لا يخبرك عنها إخباراً ولكنه يمرّ بشريط حيّ لها على مخيلتك وإحساسك، وقد تحدّثنا عن التصوير في القرآن وعرضنا أمثلة له، فإذا كان ذلك جليّاً في عامة بحوث القرآن، فإنه ليزداد جلاءً وقوة عند عرض قصة أو مشهد من خبر. ولا نطيل في إيضاح هذا الأمر بعد الذي ذكرناه في الفصل السابق، ولكن ما عليك إذا أردت أن تقف على التصوير القرآني في القصة إلا

---

(١) طه: ٤٩ ـ ٥٤.

(٢) الكهف: ٢٢ و٢٣ و٢٤.

أن تعود إلى ما كتبه المرحوم سيد قطب في ذلك في كتابه «التصوير الفني في القرآن».

المظهر الخامس: التنويع في الاستهلال بالقصة ووضع المدخل إليها، وأنت تعلم أن أهم مظاهر التشويق في القصة ينبغي أن يكون متجمعاً وبارزاً في أولها، حتى يندفع القارىء بذلك إلى المضي في استطلاعها والتأمل في مختلف مراحلها.

فالقصة في القرآن، تبدأ في كثير من الأحيان، بأغرب مشهد يلفت النظر فيها، حتى إذا أثار ذلك انتباه القارىء، انطلق البيان القرآني في عرض سائر مشاهدها المتلاحقة، وقد يكون هذا المشهد الذي أُقيم في مدخل القصة، متأخراً من حيث سلسلة الوقائع والأحداث المتلاحقة فيها، فيعمد البيان القرآني العظيم إلى استدراك ما تركه من قبل، ويعرضه خلال القصة بمناسبة ما، وفي إطار يزيد من جمال العرض وروعته.

ولنقرأ ـ مثالاً لذلك ـ قصة موسى وفرعون في أول سورة طه. انظر إلى هذا المشهد الذي افتُتح به مدخلاً للقصة:

﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً ﴾[1].

لا ريب أنه كما ترى، مشهد يلفت النظر ويبعث على الانتباه والتطلّع إلى ما وراءه. ولكن البداءة به فوّتت ـ كما ترى ـ على القارىء معرفة ما سبق ذلك من الأحداث؛ فيستدركها البيان القرآني في ثنايا العرض ويصوِّرها للقارىء وكأنها قصة ضمن قصة.

وانظر كيف حانت المناسبة، وكيف عادت القصة إلى عرض الأحداث من أولها بمناسبة معينة. فعندما ذهب موسى إلى حيث رأى النار المشتعلة، سمع هناك نداء الله عزّ وجلّ يكلّمه ويضعه أمام مسؤولية الرسالة التي سيكلف بها،

---

(١) طه: ٧.

فيقول موسى إنه وحده ضعيف عن تحمّل هذه المهمة الشاقة، فليكن أخوه هارون مُعيناً له ومُساعِداً في ذلك. فيجيبه الله إلى ذلك ويذكره ممتنّاً بنعمه التي أسبغها عليه منذ ولادته إلى اليوم، وهكذا تأتي المناسبة وتعود القصة من أولها بهذا الشكل:

﴿ قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى. ولقد منَنّا عليك مرة أخرى، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ، فليُلقه اليمّ بالساحل يأخذْه عدو لي وعدو له، وألقيتُ عليك محبة منّي ولتُصنَع على عيني، إذ تمشي أختك فتقول لهم أدلّكم على مَن يكفلُه، فرجَعناك إلى أمك كي تقرَّ عينُها ولا تحزن وقتلتَ نفساً فنجيناك من الغمّ وفتنّاك فتوناً، فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ﴾[1].

ولعلّه لا يخفى عليك أن هذا الأسلوب في عرض القصة يعتبر من أحدث الأساليب الفنية في إخراج الروايات والقصص كتابة وتمثيلاً.

غير أن هذا الأسلوب لا يعتبر الطريقة المفضلة دائماً، فقد يكون العمل الفني بالنسبة لبعض القصص يحتاج إلى طريقة أخرى في الاستهلال والعرض.

فمن ذلك أن يُنتزع أهم مظاهر العبرة من القصة، فتُصاغ بشكل خلاصة لها، ثم يوضع تمهيداً ومدخلاً إليها. وذلك كالطريقة التي ابتدأت بها قصة أهل الكهف. فقد مهّد لها أولاً بهذه الخلاصة عنها:

﴿ أم حَسِبْتَ أنَّ أصحاب الكهفِ والرَّقيم كانُوا من آياتِنا عَجباً، إذْ أوى الفتيةُ إلى الكهف فقالوا ربَّنا آتنا من لدُنك رحمةً وهَيىءْ لنا من أمرنا رشداً فضربْنا على آذانهم في الكهف سنينَ عدَداً ثم بعثناهُم لنعلمَ أيُّ الحزبين أحْصى لما لَبِثُوا أمداً ﴾.

ثم بدأ يعرض تفصيلها قائلاً: ﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربِّهم وزِدْناهم هدىً.. ﴾[2] الآيات.

---

(١) طه: ٣٦ ـ ٤.

(٢) الكهف: ٩ ـ ١٣.

ومن ذلك أن يمهد لها بعبارات يكشف فيها عن حكمة أحداثها وسبب وقائعها، لتتجسد بذلك العبرة التي ينبغي أن تؤخذ منها، حتى إذا تنبّه فكر القارىء إلى ذلك بدأ يسرد عليه القصة وهو متيقظ لمراميها ومكان الهداية منها وذلك كالأسلوب الذي مهّد به لقصة موسى وفرعون في أول سورة القصص. فقد ذكر الله جلّ جلاله بين يدي القصة هذه الآيات الممهدة:

﴿ إن فرعونَ علا في الأرض، وجعل أهْلَها شيَعاً يستضْعِف طائفة منهم يذبّح أبناءَهم ويسْتَحيي نساءَهم، إنّه كان من المُفسدين ، ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[1].

المظهر السادس: العرض التمثيلي الذي يعتمد على إبراز المشاهد جليّة مشرقة أمام الناظر أو المتخيل، ويطوي ما بينها من الروابط البدهية اعتماداً على سير المخيلة وتصورها.

وأنت تعلم أن القصة إذا ما أُريد عرضها بأسلوب تمثيلي حيّ، فلا بدّ فيها من طيّ تلك الأحداث التي يقرضها الفكر والخيال بالبداهة، بل إن القيمة الفنية للقصة وحيويتها تقلّ كثيراً إذا ما شُغل فكر الناظر أو السامع بالحديث عن تلك الروابط وتبيانها.

والقصة القرآنية قائمة على هذه السمة والنهج دائماً مهما كانت القصة أو كان موضوعها. انظر مثلاً إلى قصة نوح التي وردت في سورة هود، وانتبه إلى قوله عزّ وجلّ فيها: ﴿ وأُوحِي إلى نُوحٍ أنّه لن يُؤمن من قومك إلا منْ قدْ آمنَ، فلا تبْتئس بما كانوا يفعلون واصنَع الفُلكَ بأعيُننا ووحْينا ولا تخاطبني في الذين ظلمُوا إنهم مُغرَقون. ويصنَعُ الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومِه سخِروا منه. ﴾[2].

فأنت تجد نفسك في أول هذه الآيات أمام الإخبار الإلهي الذي ينزل على

---

(١) القصص: ٣ و٤ و٥.

(٢) هود: ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨.

نوح بشأن قومه وأمْره إياه بأن ينصرف إلى إنشاء سفينة لينجو بها مع القلة من أصحابه المؤمنين فإنّ قومه مقدمون على هلاك بطوفان. ثم يسدل الستار على هذا المشهد ليبرز من ورائه مشهد آخر تبصر فيه نوحاً عليه السلام وهو منهمك في صنع سفينة. ولا ريب أن بين المشهدين أحداثاً طوتها القصة وهي عزم نوح على القيام بهذا الأمر، واستحضار المواد والوسائل لذلك؛ ولكنها أحداث جزئية يستقل بها الخيال فلا ينبغي أن يفسد بذكرها عرض القصة.

وانظر مثلاً إلى قصة موسى وفرعون في سورة طه، حينما يأمر الله موسى عليه الصلاة والسلام، وهو واقف في المكان الذي آنس منه النار ليلاً، بأن يذهب إلى فرعون فيبلغه أمر الله عزّ وجلّ: ﴿ قال لا تخافا إنّني معكما أسمعُ وأرى فأتياه فقولا إنّا رسولا ربكَ فأرْسلْ مَعنا بني إسرائيل ولا تعَذبهم قد جئناك بآية من ربِّك والسلامُ على من اتّبع الهدى إنّا قد أوحِيَ إلينا أنَّ العذابَ على منْ كذَّب وتولّى. قال فمن ربُّكما يا موسى، قال ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى ﴾[1].

فأنت في أول الآيات، أمام مناجاة بين موسى وربه جلّ جلاله، يأمره الله فيها كما ترى بالذهاب مع أخيه هارون إلى فرعون لتذكيره وتبليغه أمر الله عزّ وجلّ، ويطمئنهما بأنه لن يصيبهما منه أي مكروه، ثم ينطوي هذا المشهد. ويبرز عقبه تماماً مشهد آخر تجد فيه كلاًّ من موسى وفرعون وجهاً لوجه في مناقشة حول حقيقة الله عزّ وجلّ ودلائل وجوده؛ وهو المشهد الذي يبدأ بقوله جلّ جلاله: ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾.

أمّا ما بين هذين المشهدين، من ذهاب موسى إلى مصر ووسائل ذلك ثم طريقة التوصل إلى فرعون، ثم عرض الدعوة إلى الإسلام عليه، فهو شيء معلوم يستقل بتصويره الحسّ والخيال، وليس من الدقة الفنية في شيء الاهتمام بعرض ذلك وسرده على السامع أو الناظر.

وحسبنا هذا القدر من الحديث عن الخصائص الفنية للقصة في كتاب الله

---

(١) طه: ٤٦ و٤٧ و٤٨.

عزّ وجلّ، وإن كان الحديث في ذلك يطول، ولكن كتابنا هذا مبني كما قلنا على إعطاء فكرة موجزة عن كل ما يتعلق بالقرآن.

تلك هي المظاهر الفنية لمنهج القصة في القرآن. وهي كما رأيت وليد الغرض أو الهدف التربوي الذي تدور القصة القرآنية على محوره.

أي فالعمل الفني في القرآن ليس هدفاً ذاتياً، كما هي الصورة في أذهان كثير ممّن يتحدثون عن الفن أو يمارسونه بشكل أو بآخر. . وإنما القيمة الفنية في القرآن عموماً وفي موضوع القصة خصوصاً، خادم لتحقيق الهدف التربوي، وإدخال المضمون القرآني من أيسر طريق إلى مقر اليقين من العقل ومكمن الوجدان من القلب.

* * *

القيمة التاريخية لقصص القرآن:

هل يحتاج هذا العنوان إلى بحث؟

إنك لو علمت أن النظر في كل موضوع أو بحث، إنما يتم عن طريق المنطق والعقل المتجرد الحر، لأدركت أن هذا العنوان كلام غريب. وأن كتابة صحيفة أو صحيفتين تحته تضييع للوقت ومعابثة للبدهيات.

ولكنك تعذرني في أن أكتب في البدهيات، حينما تعلم أن كثيراً من البدهيات أصبحت في عصرنا نظريات قابلة للجدل والبحث.

إن العقل البشري لم يمرَّ بمحنة كتلك التي يمرّ بها في هذا العصر، وحسبك مظهراً من مظاهرها أن تقام فرضيَّة ما طبق غرض معين أو شهوة نفسية أو حقد مستحكم، ثم يُساق إليها العقل سوقاً، فيُراد على تأييد الفرضية ودعمها ولو بزيف من الأدلة والبراهين، ثم يُراد على تفنيد ما يخالفها ولو بزيف من الأدلة والبراهين أيضاً.

وكم من فرق بين أن ينطلق الإنسان من نقطة الصفر، ليسير من وراء ما يهديه إليه عقله المتجرد الحر، وبين أن يخطّ بغريزته السبيل التي يشتهيها ثم

يعمد فيقود عقله فيها، مكبّلاً بالأغلال مسيّراً تحت لهيب السياط!..

ومع هذا، فلم أكن أتصور أني بحاجة إلى أن أبحث شيئاً ما تحت عنوان: القيمة التاريخية لقصص القرآن، أو أن أنفق أيّ قدر من الوقت في البدهيات، إلى أن اطّلعت على كلام في منتهى الغرابة والعجب جاء في كتاب: الأدب العربي الحديث، من مقررات طلاب البكالوريا الأدبية[1].

يقول الكاتب في صفحة: ٣٠٢ تحت عنوان نماذج قصصية:

(إن مكتبتنا العربية تتدفق بعباب زاخر من قصص وأحاديث ومحاورات وأسمار وخرافات يتجلّى بها وجه المجتمع العربي وتتوضح فيها سماته، وتختلج روحه وحيويته. فالقرآن الكريم أشار إلى كثير من القصص إشارات خاطفة ليبيّن مواضع العبرة منها. ولا شك أن إشارات القرآن الكريم إلى هذه القصص دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائر الذي يتداوله الناس في جزيرة العرب)!!..

دعك من الطريقة المقصودة إلى إيهام أن منبع القصص القرآني إنما هو ما كان يفيض به المجتمع العربي من خرافات ومحاورات وأسمار. ولكني أريد أن أعلم: في أيّ مصدر تاريخي أو أدبي أو ديني أو جغرافي أو فلسفي، ثبت أو أشير إلى أن ما جاء به القرآن من قصص عاد وثمود ونوح وفرعون ويوسف وأهل الكهف، إنما كان من القصص الشعبي السائر الذي كان الناس يتداولونه في أسمارهم ونواديهم ومحاوراتهم؟!.. بل حسبي أن أعلم اسم واحد فقط من العرب وقف أو جلس في نادٍ من نوادي العرب يتحدث بكلمة واحدة من أيّ قصة جاء بها القرآن من بعد.. حسبي ذلك لألمح بارقة لرائحة دليل علمي، لكي أسرع فأقول إن بالإمكان أن يكون هذا صحيحاً!!.

يا عجبا!!.. أيكون القرآن كاذباً من حيث صدق الكاتب؟!.

القرآن يقول: ﴿تلك من أنباء الغيب نُوحِيها إليْك، ما كُنْت تعلمُها

---

(١) مما نحمد الله عليه أن هذا الكتاب ألغي أخيرا واستبدل به غيره، واختفى منه هذا الغثاء، إلا أنه لا يزال مغروسا في بعض الأذهان..

أنت ولا قومُك من قبْلِ هذا، فاصبر إنَّ العَاقبة للمتقين ﴾[1].

أما الكاتب فيقول: لا شك أن إشارات القرآن إلى هذه القصص، دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائر الذي يتداوله الناس في نواديهم[2].

أفكان في العرب من يسكت على قوله تعالى: ﴿ . . ما كنت تعلمها أنت ولا قومك. . ﴾ لو أنها كانت حقّاً من القصص الشعبي الذي يتداوله العرب في أسمارهم؟

أو ما كانوا يتخذون من هذه الآية، إذاً، راية يرفعونها ويتشبثون بها، ليعلنوا عن افتئات الرسول عليهم، وليشوهوا بها سمعته عند كل من يعرفه من الناس؟.

فأين هم الذين أنكروا عليه هذه الآية؟. وأين هم الذين قالوا له: بل نحن نعرف هذه القصص قبل أن تحدّثنا عنها. وإنها من الأساطير التي تفيض بها مجالسنا ونوادينا؟.

أين الذي قال هذا الكلام للرسول ﷺ؟ وليكن واحداً فقط من جميع العرب، وليكن من خصومه الألدّاء، بل وليكن، إذا شاء هذا الكاتب، كاذباً مثله.

فنحن نكتفي بأي كلمة، من أي عربي عاش في عصر النبي ﷺ، تصلنا بأيّ سند صحيح أو ضعيف تكذّب النبي ﷺ في هذه الآية وتثبت عكسها من أن العرب كانوا يعلمون هذه القصص وأنها كانت من فكاهات أسمارهم ونواديهم.

---

(١) هود: ٤٠.

(٢) محل إنكارنا على هؤلاء، دعواهم أن العرب كانوا على علم بتفاصيل هذه القصص كما جاء بها القرآن. فلو قالوا: إنهم كانوا قد سمعوا من قبل بعناوينها أو بأبرز أحداثها على وجه الإجمال، كسماعهم باسم الطوفان، وعاد، وثمود، والفراعنة، لما كان في ذلك ما يستعظم ويدعونا إلى الإنكار.

وإلى أن يأتينا الكاتب بأيِّ ثبْت أو صورة ثبْت من أي مصدر علمي يستر به سوءة كلمته العارية هذه، نقول له: لعلّك يا هذا نمت نومة ثقيلة صعد فيها إلى دماغك سحاب مركوم من أبخرة معدتك أو أحقاد نفسك، فحلمت أنك تسمر في مجلس المتنبي مسيلمة الكذاب وعن يمينه النبيَّة الأخرى سجاح. وأخذت تسمع القرآن كل منهما، حتى استفزك الطرب وتملكتك النشوة من جمال ما تسمع، فصحوت وقد انطبع قرآنهما الكريم في خيالك!.. فعن ذلك القرآن جئت تقول هذا الذي تقول. ونعوذ بالله من أبخرة تستقر من الرأس في مكان العقل، فتجعل الرجل يفكر بالسمادير والأوهام بدلاً من أن يفكر بالمنطق المشرق الصافي.

* * *

وبعد، فما هي الوثائق التاريخية التي تُعرَف بها أحداث الجزيرة العربية وأوضاعها في صدر الإسلام؟

يُجمع كل الباحثين على أن القرآن هو أول وثيقة في هذا الصدد. وما من باحث يدرس أحوال الجزيرة العربية في صدر الإسلام إلا ويضع القرآن أول مستند لدراسته وجمع معلوماته، مهما كانت عقيدة هذا الباحث في مصدر القرآن وجوهره.

إذاً.. كيف يُجمِّع الباحث المؤرّخ معلوماته عن الجزيرة على ضوء القرآن وأبحاثه وطابعه؛ حتى إذا وقف أمام أخباره عن الأمم الماضية وأحداثها ناقض نفسه قائلاً: إن هذه الأخبار يعوزها السند التاريخي والميزان العلمي الصحيح؟!.

سَلْ جميع مؤرخي الشرق والغرب عن أول مصدر يعتمدون عليه في ما لهم من معلومات عن المسيح عليه الصلاة والسلام وعن موسى وخروجه من مصر واجتيازه (تيه سيناء) إلى فلسطين، يجيبوك إنه: الكتب المقدسة.

أفتكون هذه الكتب مصدراً تاريخياً علمياً نزيهاً، ثم لا يكون القرآن واحداً من هذه المصادر على الأقل؟!..

إن الأمر في هذا يعود إلى واحدة من اثنتين:

إمّا أن تؤمن بأن القرآن ليس أُكذوبة سجّلها محمد ﷺ على ربّه عزّ وجلّ وإنما هو كلام الله ووحيه إليه، بلّغه إلى الناس بصدق وأمانة. وعندئذ فإن التاريخ هو الذي يستمدّ من حديث القرآن وأخباره، وليس العكس، وليس لك من سبيل إلى الشك بأي حرف منه.

وإما أنك لا تؤمن به كلاماً من عند الله عزّ وجلّ، مهما قامت أمامك الأدلة والبراهين، وعندئذ نقول لك: لقد دلّ التاريخ بعمومه ودلّت السيرة النبوية بخصوصها، على أن ما جاء به القرآن من أخبار الأمم البائدة كان شيئاً يجهله العرب جهلاً تامّاً، وإنما كان يعلم بعضاً منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة والإنجيل. وقد كان اليهود هم الذين يُساكنون العرب في جزيرتهم، وكانوا ـ كما هو معلوم ـ ضنينين بما عندهم من هذه المعلومات، ولم يكونوا يبوحون بها إلى غيرهم بأيّ شكل ولأي سبب.

وهذه الحقيقة التي لا ينكرها أيّ مثقف منصف، هي التي كوّنت معنى الإعجاز في القصص القرآني، فقد كان الرسول ﷺ أميّاً لم يقرأ كتاباً ولا خطّه بيمينه ولم يدرس أو يتردد على واحد من أهل الكتاب، وكانوا كما قلت ضنينين بكل ما عندهم.

وقد تجلى هذا الإعجاز أول ما تجلّى لهؤلاء الكتابيّين الذين عاصروا بعثة النبي ﷺ، حيث رأوا فيه أبرز برهان على صدق نبوّته ورسالته.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: بعث قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبارها عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله. فقالوا لهما: سَلُوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقوّل: سَلُوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسَلُوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسَلُوه عن الروح ما هو؟ فرجعا إلى قريش وأخبراهم بقول الأحبار، فجاءوا يسألون رسول الله ﷺ الأسئلة الثلاثة فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً عمّا سألتم، ولم يقل: إن شاء الله. فتلبث الوحي

خمسة عشر يوماً، وأحزن ذلك رسول الله ﷺ، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف، وفيها عتاب له على حزنه وفيها يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله ﴾ وفيها قصّ الله خبر أصحاب الكهف، والرجل الطوّاف وهو ذو القرنين، وأنزل معها قوله: ﴿ ويسألونك عن الروح قُلْ الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[1].

فهذا الخبر يدلك على أن ما تضمنه القرآن من قصص الأمم الغابرة، حقائق تاريخية تعتمد على وثائق ومستندات لا تقل أهمية عن تلك المستندات التي يعتمدها الكافرون بنبوّة محمد ﷺ وأن المشركين لم يكونوا على علم بها.

فإن كنت تجحد بكل بحث تاريخي يعود إلى عصر الجاهلية وصدر الإسلام وتكذّب كل مرجع أو مستند فيه فلك شأنك ولنقاش ذلك مجال آخر. أما إن كنت تجحد بالقرآن وحده، من حيث تعتمد على روايات الشعر الجاهلي وفحواه واستنتاجاته، فإن من العبث العجيب والتناقض المضحك أن تعتمد على دلائل استنتاجية لا تقوم إلا على محض الخيال والوهم، ثم تلوي الرأس متشككاً فيما يحدّثك عنه القرآن ويخبرك به.

ولا ينبغي أن تلتبس عليك حقيقة القصة القرآنية بالأمثلة التي يضربها على سبيل التقريب والتشبيه. فلكلٍّ منهما أسلوبه المتميز، وليس في الناس من يجهل الفرق بين مثل يُضرب به، وقصة تروى وتنقل. نقول هذا ونحن نعلم أن في الناس من يتجاهلون الفرق ويغمضون أعينهم عمداً، ثم يذهبون يقررون أن القصة في القرآن ليست أكثر من أمثلة تُضرب.

وبدهي أن أيّ عاقل لا يمكن أن يصل به الغباء واللّبس إلى درجة أن يتوهم أن قصة مريم وعيسى وهود ونوح وقصة موسى وفرعون، وأصحاب الكهف كلّ ذلك أمثلة تُضرب.

والخلاصة، أن من آمن بأن القرآن وحيٌ من عند الله، علم بذلك أن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١/٢٩٥، وتفسير ابن كثير وابن جرير الطبري في أول سورة الكهف.

القصة القرآنية هي في موضع القطع الذي لا يلحقه أيّ ريب. ومَنْ لم يؤمن بذلك، أدرك هذه الحقيقة نفسها إذا ما تأمل في مصادر السيرة والتاريخ وعلاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة.

أما من اشتهى أن لا يدرك هذه الحقيقة، فليس أمامه إلى ذلك إلا سبيل واحد، هو أن يدّعي ان القرآن يكذب!.. وذلك لأن القرآن يقول عن كل ما رواه من الأخبار والقصص:

﴿ ما كان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ (يوسف: ١١١).

أما نحن فنقول: صدق ربّ العالمين.

obeikandl.com

المنهج التربوي في القرآن

مرة أخرى أكرّر ما قلته من أن القرآن إنما جاء ليتدبره الناس، فيصبحوا عبيداً لله بالطوع والاختيار، كما خلقهم عبيداً له بالفطرة والإجبار.

ومن أجل هذا، كان لا بدّ أن ينهج بالناس نهجاً تربوياً في كل ما يأتيهم به من أخبار وآيات وعظات وأحكام. ومن أجل هذا كان هذا الكتاب أعظم مصدر للتربية إلى جانب أنه أعظم كتاب يقدّم للإنسان حقائق الكون كله. فما هو منهجه التربوي، وما هو أسلوبه في ذلك!..

إن الإجابة على هذا السؤال، تستدعي أن يفرد لذلك كتاب خاص، لا فصل مستقل من كتاب.. ولكنّا، وفاءً بالمنهج الذي التزمناه، نسرع فنمر على بعض المظاهر التربوية في القرآن، مكتفين بدراسة وجيزة لها.

المظهر الأول: أنه صبغ كل المواضيع التي طرقها وعالجها، بصبغة الهدي والموعظة والإرشاد. فلم ينسّق هذه المواضيع والأبحاث على أساس وحدات منفصلة ومستقلة عن بعضها، كما هو شأن عامّة الكتب والمؤلفات المعهودة، إذ هي بذلك لا تؤدي عملها التربوي المقصود في نفس الإنسان، وإنما بثّ في جميعها شرايين التوجيه والنصح والهداية، فصيّرها بذلك وحدة كاملة متضامّة تعمل عملاً واحداً وتسير بالإنسان نحو غاية لا تختلف. ولا داعي إلى أن نأتي لك بالأمثلة على ذلك، فقد ذكرنا هذا البحث فيما مضى عند كلامنا عن خصائص الأسلوب القرآني وعن القصة في القرآن.

المظهر الثاني: ما ذكرناه من التدرّج في الأحكام وكيفية أخذ الناس بها،

فالقرآن كما قد علمت لم يصبّ أحكامه وفرائضه في حياة الناس دفعة واحدة، لكنه سعى بهم إليها على مراحل وفي خطوات رتّب بعضها على بعض ومهّدت السابقة منها للّاحقة. وذلك كما قد علمت من دعوته الناس إلى العقيدة الصحيحة أولاً، ثم إلى الإصلاح النفسي والاجتماعي ثانياً، وكما قد علمت من تدرجه في تحويل الناس عن عوائدهم وفواحشهم التي تعودوا عليها.

المظهر الثالث: السير بالناس، في كل ما يلزم به من الأحكام، نحو السهولة واليُسْر؛ وإقناعهم بأن كل ما قد يتصورونه قيوداً، ليس إلا أُسساً لا بدّ منها لسعادتهم ولصلاح معاشهم ومعادهم، فهو يقول مثلاً: ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون ﴾[1] ويقول: ﴿ يريد اللّهُ بكم اليُسرَ ولا يريد بكم العسر ﴾[2] ويلفت نظرهم إلى أن الشريعة الإسلامية إنما تحمل إليهم في طيّها سرّ الحياة السعيدة للفرد والجماعة فيقول: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[3] ويقول: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[4].

المظهر الرابع: أنه يضع المتأمل في آياته في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله تعالى، ورجاء رحمته وعفوه؛ وذلك كي لا يسيطر عليه من الرهبة والخوف ما يجعله في يأس من سعة عفوه، فيمضي بذلك في الطريق التي يشتهيها لاعتقاده بعدم الجدوى من الحذر والاستقامة، ولكي لا يفيض قلبه أملاً بمعاني الرحمة والمغفرة وحدها، فلا يجد بذلك ما يصدّه عن ارتكاب أيّ منكر والانحراف إلى أيّ زلل.

والقرآن يربي النفس البشرية هذه التربية باتباع أسلوبين:

الأول: أنه حينما يصف الكفرة والمشركين الذين استحقوا عذاب الله

---

(١) المائدة: ٦.
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) الأنفال: ٢٤.
(٤) النحل: ٩٨.

ونكاله يصفهم بأسوأ أعمالهم وأحطّ ما انتهوا إليه من الخصال، حتى إذا تأملت في حالهم رجعت إلى نفسك فقلت: أحمد الله على أني لست منهم ولم أبلغ مبلغهم في السوء والانحراف. وحينما يصف المؤمنين الذين استحقوا ثواب الله ورضوانه، يصفهم أيضاً بأسمى خصالهم وأفضل أعمالهم حتى إذا تأملت في حالهم، عدت إلى نفسك تقول في تألم وأسف: أين عملي من أعمالهم وأين تقصيري من سموّ درجاتهم. وبذلك تجد ذاتك في حالة وسطى بين الرجاء في عفو الله والخوف من عذابه.

ولنضرب مثلاً لتجلية هذا المظهر التربوي في كتاب الله عزّ وجلّ. انظر إلى هذه الآيات وهي تصف الأسباب التي أدّت إلى شقاء صنف من الناس يوم القيامة: ﴿ يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نكُ من المصلّين، ولم نكُ نطعم المسكين، وكنا نخوضُ مع الخائضين، وكنّا نكذّبُ بيوم الدين ﴾[1] فأنت إذا سمعت هذه الأوصاف حمدت الله على أنك لست منهم مهما كنت مخطئاً ومقصراً.

ثم انظر إلى هذه الآيات الأخرى وهي تصف الأسباب التي بها يسعد الناس في حياة خالدة يوم القيامة: ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنا وإذا خاطبهمْ الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتُون لربهم سُجَّداً وقياماً والذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنم إنّ عذابها كان غراماً.. ﴾[2] أو إلى هذه الآيات التي يقول فيها الله عزّ وجلّ: ﴿ إنما يُؤمنُ بآياتنا الذين إذا ذُكروا بها خرُّوا سُجدا وسبحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون، تتجافى جنوبُهم عن المضاجع يدعون ربهمْ خوفا وطمعا ومما رزقناهم يُنفقون، فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قُرّة أعينٍ جزاء بما كانوا يعلمون ﴾[3] فأنت إذا تأملت هذه الأوصاف، تضاءلت نفسك أمامك، وتبدّت لك منها مظاهر التخلّف والتقصير.

---

(١) المدثر: ١ ـ ٤٦.

(٢) الفرقان: ٦٣ و٦٤ و٦٥.

(٣) السجدة: ١٥ و١٦ و١٧.

ومن هاتين النظرتين يتولد الخوف والرجاء ويتمازجان في حياة الإنسان؛ ويتولد منهما معنىً يدفعه في سبيل معتدل يجمع فيها بين الوفاء بحق نفسه وحق الله عزّ وجلّ.

الثاني: أنك لا تجد آية في كتاب الله فيها الحديث عن الجنة ونعيمها وعن الصالحين وما أعدّ الله لهم من المثوبة، إلا وتجد من بعدها آية فيها الحديث عن النار وهولها وعن الكافرين وما أعدّ الله لهم من العقوبة. ولا تكاد تجد في القرآن آية أو آيات قد انفردت بوصف الشدّة أو الرخاء دون أن يكون إلى جانبها آية أو آيات فيها وصف الطرف الآخر. والحكمة من ذلك أن لا يرهب الإنسان رهبة تقذف به إلى اليأس، ولا يرغب رغبة تغريه بالقعود والكسل.

ولنضرب بعض الأمثلة على هذا:

١ ـ ﴿ يوم نقولُ لجهنَّم هل امتلأتِ وتقولُ هل من مَزيد، وأُزْلِفت الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد، هذا ما توعدون لكلِّ أوّاب حفيظ ﴾[١].

٢ ـ ﴿ إن أصحابَ الجنَّة اليومَ في شُغُلٍ فاكهون، هم وأزواجهُم في ظلال على الأرائكِ متَّكئون، لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدَّعون، سلامٌ قولاً من ربٍ رَحيم. وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون، ألم أعهد إليكم يا بني آدمَ أن لا تعبُدوا الشيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين. . . ﴾[٢].

٣ ـ ﴿ نبِّىء عبادي أنِّي أنا الغفُور الرَّحيم، وأنَّ عذابي هُوَ العذابُ الأليم ﴾[٣].

٤ ـ قُل يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنفُسِهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنَّه هو الغفورُ الرَّحيم، وأنيبوا إلى ربّكم وأسلمُوا له من قبل أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾[٤].

---

(١) ق: ٣٠ و٣١.

(٢) يس: ٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠.

(٣) الحجر: ٤٩ و٥٠.

(٤) الزمر: ٥٣ و٥٤.

وقُسْ على هذه الأمثلة كل ما في القرآن من آيات الوعد والوعيد ووصف الجنة والنار، لا بدّ أن تجد الحديث عن كلٍّ منهما معادلاً ومقارناً للحديث عن الآخر، ولا يمكن أن تعثر على أيّ شذوذ في ذلك.

وهذه الظاهرة، من أدق مظاهر المنهج التربوي وأهمها في كتاب الله عزّ وجلّ إذ هي التي تضع الإنسان في مستوى العبودية لله عزّ وجلّ، حيث تشدُّه إليه رغبة ورهبة بآنٍ واحد؛ وهي النهاية التي ينبغي أن ينتهي إليها العبد بالنسبة لربه جلّ جلاله. وقد نبّه إليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، خلال وصيته العظيمة لعمر بن الخطاب أثناء مرض موته.

ولعلّ من المناسب أن نختم هذا الفصل بمقاطع منها:

﴿ .. ألم ترَ يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم ترَ يا عمر إنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً. ألم ترَ يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، ونزلت آية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه. ألم ترَ يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم، لأنه تجاوز لهم عمّا كان من سيء، فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم. فإن حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك. وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله)[1].

* * *

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٤٥. هذا وقد أفردنا الحديث عن المنهج التربوي في القرآن برسالة مستقلة أدرجناها في سلسلة بحوث في القمة، وعنوانها: (منهج تربوي فريد في القرآن).

النّزعة الإنسانيّة في القُرآن

القرآن كتاب عربي، نزل بلغة العرب، وصِيغَ بلهجة أوسط القبائل العربية: قريش.

وكتابٌ هذا شأنه، كان ينبغي ـ لو أنه ظهر في الأرض ولم ينزل من السماء ـ أن يتأثر تأثراً ما، من حيث مبادئه وأفكاره، بنزعة البيئة أو الإقليم أو القوم الذين ظهر بينهم وجاء بلغتهم، كما هو الشأن لعامّة الكتب والمؤلفات الأخرى.

ولكنك لا تبصر من ورائه إلا السمة الإنسانية المطلقة، فهو في كلِ ما يصدر عنه من عقيدة وأخلاق وتشريع وعظات، إنما يقدم من ذلك كله ثوباً قد فصِّل على قدر الحقيقة الإنسانية كلها أينما وجدت وكيفما تنوعت.

ومهما نظرت في هذا الثوب، فلن تجد فيه أيّ مظهر لطابع البيئة أو القبيلة، سواء في شكله أو جوهره.

وهذا ما نعنيه عندما نصف القرآن بأنه: إنساني النزعة في كلٍّ من موضوعه وأسلوبه. فلنشرح هذا الوصف بالقدر الذي يفي بغرضنا من هذا الكتاب.

أولاً ـ النزعة الإنسانية في القرآن من حيث الموضوع:

تتجلى النزعة الإنسانية في عامة موضوعات القرآن، فلنتلمسها في كل موضوع على حدة:

أ ـ العقيدة: أوضح القرآن وحدانية الله جلّ جلاله ومالكيته للعالم كله، دون تمييز بين رقعة وأخرى منه، ودون أن يخصّ بخطابه في هذا البيان فئة معينة. فقال: ﴿ الحمدُ لله ربّ العالمين ﴾ وقال: ﴿ فللّه الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين ﴾[1].

وأوضح بعثة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام إلى البشر كلهم، في بقاع الأرض، وفي كل الأزمنة التالية، دون أي نظرة خاصة في ذلك إلى الذين بعث من بينهم أو البيئة التي ظهر فيها فقال: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾[2] وقال: ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[3] وقال: ﴿ وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[4].

وقرر عبودية الإنسان لله عزّ وجلّ، لا فرق بين عرق وآخر أو بيئة وأخرى ولم يلحظ في ذلك أيّ خصوصية أو امتياز بين العرب الذين كان الرسول منهم وبين أيّ جماعة أخرى من الناس. فقال: ﴿ إنْ كلُ ما في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً ﴾[5] وقال: ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[6].

ولفت أنظار الناس إلى أدلة وجود الله ووحدانيته، فلم يقدم أي دليل يخصّ بيئة معينة، أو يوجد لدى قوم بخصوصهم، أو تفهمه طبقة دون سواها. وإنما عرض من ذلك ما يفهمه ويألفه كل إنسان وفي كل زمان ومكان. والآيات التي تتضمن الأدلة المختلفة على وجود الله ووحدانيته كثيرة ومشهورة، لا داعي إلى الإطالة بذكرها. فتأملها تجدها متجهة إلى الفكر الإنساني العام المتمثل في سائر الفئات والجماعات.

---

(١) الجاثية: ٣٦.
(٢) الأعراف: ١٠٨
(٣) الفرقان: ١.
(٤) سبأ: ٨٨.
(٥) مريم: ٩٣ و٩٤.
(٦) الأنعام: ١٨.

ب ـ التشريع: إذا أمعنت النظر، وجدت قانون كل أمة أو دولة أو جماعة من الناس، إنما يعكس طبيعتها وأعرافها ويتجاوب مع ظروفها فشريعة كل أمة إذاً تعبير عن حاجتها ومتطلباتها فقط دون أيّ نظر إلى ما وراء حدودها.

غير أن التشريع القرآني لا تجد فيه أيّ منزع إلى عرق أو طائفة أو جماعة.. وإنما هو ينبثق عن أسس ومبادىء إنسانية مطلقة، بحيث تأتي عامّة فروعه متطابقة معها في دقة واطّراد.

ولنضرب أمثلة لإيضاح هذه الحقيقة:

سورة النساء، من السور التي تفيض بالأحكام التشريعية المتعلقة بتنظيم الأسرة وحقوق المرأة، ونظام الحكم، وتقويم العدالة وضبط حقيقتها. فانظر كيف بدأت هذه السورة بوضع الركيزة الأساسية لتلك الأحكام كلها، وكيف لفتت أنظار الذين سينصتون إلى هذه الأحكام التالية، إلى أن المنطلق إلى تقريرها ووجوب الأخذ بها إنما هو النظر إلى مصلحة الأسرة الإنسانية المطلقة دون أي التفات إلى الظروف المتنوعة والمختلفة للبيئات والجماعات. وهذه هي الركيزة الأساسية:

﴿ يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[1].

فالمنطلق لتقرير كل الأحكام والتشريعات إنما هو الرحم الإنسانية العامة. ففي سبيلها ستتلى الأحكام التالية، وعلى ضوئها ينبغي أن تفهم حقيقة المقررات التشريعية التي تفيض بها السورة.

وتمضي في قراءة السورة، فتجد سلطان هذا المنطلق الأول ممتداً إلى سلسلة الأحكام والتنظيمات التالية كلها: حقوق اليتامى، حقوق النساء، فرائض الميراث، أحكام النكاح ومقوّمات الأسرة، نظام الحكم وسلطان

---

(١) النساء: ١.

الحاكم، والعدالة الاجتماعية وميزانها. وليس في فرع من فروعها أو أيّ جانب من جوانبها انعكاس ما لنظرة إقليمية أو عرقية أو امتيازات طائفية، بحيث تضيق من النظرة الإنسانية الشاملة التي كانت المنطلق والأساس.

ولنجسد هذه الحقيقة بمثال للميزان القرآني الذي وضع لمعنى العدالة، أساساً للتشريع:

رجل من أهل المدينة اسمه: طعمة بن أبيرق، سرق درعاً من جار له، يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في كيس فيه دقيق فحبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين، وكان الدقيق ينتثر من الجراب في الطريق فاتهم قتادة طعمة بالسرقة، والتمس الدرع عنده فلم توجد، وحلف لهم: والله ما أخذها وما له بها من علم. ثم اتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى اليهودي فأخذوه فقال لهم: لقد دفعها إليّ طعمة بن أبيرق، فلم يصدقه أحد. وجاء بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يدافع عن صاحبهم تجاه اتهام اليهودي له بالسرقة واتهامه بأنه هو الذي أعطاه الدرع. وكان قوم طعمة قد تواطئوا مع صاحبهم أن يستميلوا النبي ﷺ إليهم، كي لا يجد اليهودي أذناً صاغية له. واقتنع رسول الله ﷺ معهم بذلك وهمَّ بأن يدافع عنه ويحكم على اليهودي بالسرقة. فنزلت هذه الآيات المتتالية من سورة النساء، توضح للنبي الحقيقة وتفضح ما بيّته المنافقون فيما بينهم، وتكشف للنبي ﷺ سبيل الحكم العادل المتجرد.

﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيماً، واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحبُّ من كان خوَّاناً أثيماً. يستخفُون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم، إذ يبيتون ما لا يرضي من القول، وكان الله بما يعملون محيطاً. ها أنتم هؤلاء جادلتُم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادِلُ الله عنهم يومَ القيامةِ أم من يكون عليهم وكيلاً. ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً. ومن يكسب إثماً يكسبه على نفسه، وكان الله عليما حكيماً. ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً

مبيناً. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفةٌ منهم أن يُضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرّونك من شيء، وأنزل اللّهُ عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[1].

فقد ذاب في ميزان العدالة في التشريع الإسلامي، العرق والقرابة والطائفية والتبعية، ولم يبق فيه إلا اعتبار واحد: هو الحقيقة الإنسانية المطلقة.

جـ ـ الأخلاق والمبادىء: ليس الخلق النبيل في القرآن، عبارة عن السلوك الذي ينسجم مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخلقية المستحسنة، كما هي النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم في مقوّمات الفضيلة والأخلاق.

وإنما الأخلاق والفضيلة في القرآن، مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب وتساعد في إرساء قواعد السعادة الإنسانية للفرد والجماعة من جانب آخر. ومن ثم فأنت لا تجد في هذه المناهج السلوكية قابلية للاختلاف والتغيّر ما بين بيئة وأخرى، لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة، ولكنها انبثقت عن الفطرة الإنسانية الشاملة.

فمن المبادىء الخلقية في القرآن، اعتبار الناس كلهم، مهما اختلفت أعراقهم وأنسابهم وبيئاتهم، في مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية، ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بما يحرزه كلٌ منهم من السبق بسعيه الخاص في ميدان الجهد الإنساني المفيد المشرف. ﴿ يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2].

ومن المبادىء الخلقية في القرآن، إلزام الأبناء بحسن معاملة الآباء وخفض جناح اللطف والرحمة لهم، مهما كان بين الطرفين من تباعد في الرأي أو اختلاف في المذهب. وهو مبدأ إنساني غير ناظر إلى طبيعة خاصة أو عُرْف معين، يقتضيه ضمان سلامة الأسرة الإنسانية التي تتدرج صعداً من الخلية

---

(١) النساء: ١٠٦ ـ ١١٣.

(٢) الحجرات: ١٣.

الأولى في المجتمع وهي الأسرة. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهناً على وهن وفصاله في عامين أنِ اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1].

ومن المبادىء القرآنية العامة ما أثبته القرآن من أن الإنسان لا يلاحق أو يؤاخذ إلا بما اجترحه بنفسه، وأنه لا يؤخذ بعمل غيره أو بشيء من مظاهر الطبيعة وأحداثها فيقول: ﴿ وكلَّ إنسان ألزمناهُ طائره في عُنقِهِ ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يَلقاه منشوراً ﴾[2] ويقول: ﴿ من اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[3]. وتأمل في كل ما وصّى به القرآن من المبادىء الأخلاقية، تجد المعنى الإنساني وحده هو المتمثل فيها وهو الأساس في الدعوة إليها والأمر بها.

ثانياً ـ النزعة الإنسانية في القرآن من حيث الأُسلوب:

يركّز الأسلوب القرآني، فيما يعبّر عنه من الموضوعات والمعاني، على السمة الإنسانية الشاملة؛ ويحاذر أن يأتي في خطابه للناس أو في شيء من تعليقاته على الأحداث، بما ينبّه فكر القارىء إلى خصوص بيئة أو عرق أو إقليم أو جماعة معينة من الناس.

فأنت ترى الخطاب القرآني يتجه إلى المخاطبين، مستعملا كلمة: الناس، أو بني آدم أو المؤمنين. ولم ترد ولو مرة كلمة العرب أو قريش، أو أهل كذا، أو ما يشابه ذلك من صيغ الخطاب الخاصة بفئة معينة من الناس. وإليك نموذجاً من النداءات القرآنية:

﴿ يا أيها الناس اتّقوا ربكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾[4].

---

(١) لقمان: ١٣ و١٥.
(٢) الإسراء: ١٣.
(٣) الإسراء: ١٥.
(٤) الحج: ١

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ﴾[1].

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين ﴾[2]

﴿ قل يا أيّها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾[3].

ثم إن القرآن، رغم نزوله كما علمت، متدرجاً، ومع مناسبات الوقائع وجواباً على الأسئلة والمشكلات، فإنه لم يربط أحكامه وبياناته بشيء من تلك الوقائع والمشكلات، ولم يسجل أيّ اسم من أسماء أولئك الذين نزلت في حقهم آيات وأحكام، وإنما نزلت الآيات موضوعية عامة، دون أن تذكر اسم شخص أو تنزل إلى مستوى مشكلة بخصوصها. وذلك كي يبقى القرآن في كلٍّ من أسلوبه وموضوعه كتاباً إنسانياً يضع المبادىء والمناهج للبشر كلهم، ويشرّع الأحكام والأنظمة للإنسانية جمعاء.

ولقد مرّت بك في أسباب النزول نماذج كثيرة من الآيات التي نزلت بمناسبات معينة ذمّاً أو مدحاً لأشخاص بأعيانهم؛ ولكنها جاءت بصيغ العموم وبأسلوب موضوعي دون ذكر اسم لأحد.

ومن أجل هذا كان من القواعد الفقهية المتفق عليها قولهم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أي إن خصوصية السبب لا تؤثر على عموم الصيغة ولا تضيق شيئاً من عمومها لأن منهج القرآن أنه يبني على الوقائع الخاصة أحكاماً ومبادىء عامة.

* * *

---

(١) الأعراف: ٢٦

(٢) يس: ٦٠

(٣) الأعراف: ١٥٨

فلسفة القرآن

عن الكون والإنسان والحياة

في الوقت الذي يعتبر فيه القرآن معجزة اللغة العربية وبيانها، وكتاباً في التشريع والقانون، ومعلّماً للفضيلة والأخلاق ـ فإنه يحمل إلى الناس أسس حضارة إنسانية شاملة، وذلك عن طريق المفهوم الذي يقدمه عن كلٍّ من الكون والإنسان والحياة ووجه التفاعل والتناسق بينها.

ولن يتسع المجال في هذا المقام لشرح التقرير الذي يضعه القرآن عن كلٍّ من هذه العناصر الثلاثة للحضارة في كل زمان ومكان، فإن من شأن ذلك أن يبعدنا عن الغرض الذي نحن بصدده؛ ولكنا نتناول من هذا البحث القدر الذي يفي بحاجتنا للتعرّف على هذا الكتاب العظيم، ويكشف لنا أهم خصائصه ومحتوياته.

نظرة القرآن إلى الكون:

القرآن يبصِّر الإنسان بالكون الذي حوله على أنه جملة من المظاهر المخلوقة أبدعها الله عزّ وجلّ في انتظام وتناسق لغرضين اثنين:

الأول: أن يتأمل الإنسان فيه ويتنبه إلى مدى دقته وتناسق نواحيه وأجزائه، ليتوصل من ذلك إلى الإيمان بالخالق جلّ جلاله، ثم إلى إدراك ألوهيته وربوبيته المطلقة، ثم إلى إدراك أنه عبد لهذا الإله العظيم. وهو يقول في بيان هذا الأمر الأول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واختِلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس، وما أنزلَ اللَّهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وتصريفِ الرِّياح

والسحابِ المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾[1].

ويقول: ﴿ إنَّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكُرُون اللَّهَ قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون في خَلْق السماواتِ والأرضِ، ربَّنا ما خلقت هذا باطِلاً سُبحانك فقِنا عذابَ النار ﴾[2].

الثاني: أن تكون هذه المظاهر الكونية كلها مسخرة لخدمة الإنسان ومصلحته وحاجاته فوق هذه الأرض، وأن يجد فيها ـ بمقدار ما يتسع له إدراكه وعلمه ـ دواء لمصائبه وحلاً لمشكلاته وفائدة لحياته. ومن ثم فإن على الإنسان أن يُقبل على الكون تفهماً له واستفادة منه. وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ في عبارة عامة شاملة: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[3].

ثم يقول في بيان مفصّل: ﴿ اللَّهُ الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمراتِ رزْقاً لكم وسخّر لكم الفُلْكَ لتجريَ في البحرِ بأمرِه وسخّر لكم الأنهار، وسخّر لكم الشمسَ والقمر دائِبَيْنِ وسخّر لكم الليلَ والنهار ﴾[4]. وقال: ﴿وسخّر لكم ما في السمواتِ والأرض جميعاً منْه، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ﴾[5]. ومن ثم فإن القرآن يحذّر الإنسان من أن ينظر إلى شيء من مظاهر الكون وفوائده المختلفة على أنه مما يجب الصدود عنه وعدم اشغال الذهن أو الحياة به، رهبة أو تزهداً أو تعبداً، ويقول: ﴿ قُل من حرَّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزْق ﴾[6].

وإذاً، فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه خادم أمين مسخّر للإنسان، يستفيد منه الإنسان بمقدار ما يتأمل فيه ويستبطن ظواهره. وكلمة «التسخير»

---

(١) البقرة: ١٦٤

(٢) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١

(٣) البقرة: ٢٩

(٤) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٣

(٥) الجاثية: ١٣

(٦) الأعراف: ٣٢

من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة؛ وعلى أن للإنسان أن يستفيد منه ويستخدمه لصالحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي.

نظرة القرآن إلى الإنسان:

الإنسان في القرآن مخلوق يحمل أخطر مميزات وصفات يحملها مخلوق على الإطلاق. هذه المميزات هي: جملة الصفات الإنسانية المركبة فيه، من العقل وما يتفرع عنه من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسَبْر أغوارها، والأنانية وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والمنافسة والتملّك، والقوة وما يتفرع عنها من حبّ العظمة والنزوع إلى السيطرة والكبرياء. ونظراً لما لهذه الصفات من الخطورة والأهمية ونظراً لكونها أسلحة ذات حدّين: إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون والخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الآخر أو استعملا معاً جاء بالشر الوبيل والفوضى الهائلة للحياة ـ نظراً لذلك أطلق القرآن على هذه الصفات اسم الأمانة فقال: ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبينْ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾[1]. والذي اقتضاه حمل هذه الصفات كلها، أو حمل هذه الأمانة، أنه لم يكن يستطيع بغيرها تسخير شيء من مظاهر الكون.

والإنسان في القرآن، خليفة الله عزّ وجلّ في الأرض، أي إنه جلّت قدرته شاء أن يكون الإنسان مظهراً لعدالته، وأن يكون هو لسان الكون الناطق بحمده وتسبيحه والإيمان به، وذلك عن طريق تنفيذ أوامره وتطبيق شرعه والاهتداء إلى ألوهيته ووحدانيته. وفي بيان هذا يقول الله وهو يقصّ علينا بدء خلق الإنسان: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[2]. ويقول مخاطباً الإنسان: ﴿ أمّن يجيبُ المضطرَ إذا دعاه ويكشفُ السوء ويجعلكم

---

(١) الأحزاب: ٨٢، هذا ويجدر بالقارىء أن يرجع إلى ما كتبته موسعاً في كتابي «كبرى اليقينيات الكونية» تحت عنوان: ما الذي أحوج الإنسان إلى الدين والعقيدة الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة. ففيه تحليل وافٍ بهذا الموضوع الهام الذي أجملته هنا بهذه الأسطر القليلة.

(٢) البقرة: ٣٠.

خلفاء الأرض ﴾[1]. وهذه الآية الثانية وإن كانت تحتمل معنىً آخر هو جعلناكم تتوارثون عمارة الأرض وسكناها، إلا أن كِلا المعنيين صحيح ومراد كما قال المفسرون.

والإنسان في القرآن، بعد هذا موصوف بصفتين: واحدة منهما لبيان أصله وحقيقته، كي لا يطغيه شيء من صفاته التي تحدّثنا عنها، ولا يتجاوز بها حدود عبوديته لله عزّ وجلّ، والثانية لبيان مركزه من هذا الكون كله ومستواه بين الخليقة أجمع.

ففي صدد بيان الصفة الأولى، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فلينظُرِ الإنسانُ ممَّ خُلق خلق من ماء دافق يخرُجُ من بَين الصُّلبِ والترائب﴾[2] ويقول: ﴿أَوَ لم يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقناه من نطْفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[3] ويقول: ﴿ واللَّهُ أخرجكم من بُطونِ أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلّكم تشكرون ﴾[4].

وفي صدد بيان الصفة الثانية يقول: ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطيباتِ وفضّلناهم على كثيرٍ ممَّن خلقنا تفضيلاً ﴾[5].

والإنسان في القرآن، أخيراً، عبد الله، خلق ليكون مظهراً لألهية الله عزّ وجلّ. وما صفة الخلافة فيه وتكريمه على سائر المخلوقات وتسخير الكون له إلا وسيلة لأن يحقق عبوديته لله تعالى بالكسب والممارسة والاختيار كما خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار. وفي بيان ذلك يقول: ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون ﴾[6].

---

(١) النمل: ٦٢.
(٢) الطارق: ٥ و٧.
(٣) يس: ٧٧.
(٤) النحل: ٧٨.
(٥) الإسراء: ٧٠.
(٦) الذاريات: ٤٦ و٤٧.

نظرة القرآن إلى الحياة:

القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من جانبين:

الجانب الأول من حيث قيمتها الحقيقية، وعلاقتها بما وراءها، ومركزها من قصة الوجود بأسره والحياة كلها.

الجانب الثاني من حيث ما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها، ومدى ما ينبغي أن يستفيده منها.

فالحياة الدنيا ـ من حيث قيمتها الحقيقية ـ حياة فانية، وظلٌّ زائل ومعْبَر إلى الحياة الباقية الأخرى. والقرآن يظل يلحّ على بيان هذه الحقيقة وتجسيدها وتنبيه الناس إليها. فيقول مثلاً: ﴿ إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثم يكون حُطاماً ﴾[1] ويقول: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور ﴾[2].

أما الحياة الدنيا ـ من حيث ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الإنسان بها ـ فهي وسيلة إلى تقويم معاشه ومعاده، وسبب لا بدّ من مباشرته لإصلاح أمره وإسعاد نفسه وبني جنسه. ولذلك فالقرآن يأمر الإنسان بالاستفادة من الحياة، على أن لا تكون همَّه الأول، وعلى أن يتخذ منها وسيلة للغاية الكبرى التي خلق من أجلها، وسبباً يضمن لنفسه به السعادة الآخرة. فهو يقول في هذا الصدد: ﴿ وابتغ فيما آتاك اللَّهُ الدار الآخرة ولا تنْس نصيبك من الدنيا ﴾[3] ويقول محذراً من معارضة الفطرة الإنسانية بالانقطاع عن متعة الحياة الدنيا وطيباتها: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طيبات ما أحلَّ اللَّهُ لكم ولا تعْتدوا إنَّ الله لا يُحبُّ المعتدين وكُلوا مما رزقكمُ اللَّهُ حلالاً طيباً واتَّقوا اللَّهَ الذي أنتمُ به

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) آل عمران: ١٧٥.

(٣) القصص: ٧٧.

مؤمنون ﴾[1] ويقول: ﴿ ليس عليكمُ جناحٌ أن تبْتغوا فضلاً من ربكم ﴾[2].

وهكذا، يأمر القرآن الإنسان بالإقبال على الحياة الدنيا للتمتع بطيباتها والاستفادة من نعيمها، على أن يقف قبل ذلك على حقيقة هويتها، ويصحو من الاغترار بمظهرها؛ وذلك كي يكون هو المسيطر عليها والمسيِّر لها إلى ما تقتضيه مصالحه وسعادته، ولكي لا تكون هي المسيطرة عليه أو المُسكِرة له فيغرق في نعيمها وينسى أيّ معنى للوجود من ورائها.

فإذا تأملت في هذا التقويم القرآني، لكلٍّ من الكون والإنسان والحياة، أدركت أن محور المخلوقات كلها في الرتبة والأهمية إنما هو الإنسان، وأن الغاية التي خلق من أجلها أن يكون مظهراً لحكمة الله تعالى وعظمته وعدالته في الأرض بما يلتزمه من منهج العبودية له تعالى، وأن محور الوجود كله إنما هو الدار الآخرة فالدنيا بكل ما فيها والحياة بكل صورها وأشكالها مقدّمة بين يدي تلك الحياة الأبدية الأخرى، تلك الحياة التي لا تكاد تجد صحيفة من القرآن خالية عن التذكير بها والتحذير من جحودها.

فتلك هي أُسس الحضارة الإنسانية التي جاء بها القرآن، والتي أرادها للإنسانية دستوراً ومنهجاً في هذه الحياة[3].

---

(١) المائدة: ٨٧ و٨٨.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) وأخيرا وفّقني الله تعالى لإخراج هذا الفصل الوجيز المكثف، في كتاب شامل عنوانه (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن).

هَلْ مِنَ المُمْكِنِ تَرْجَمَةُ القُرْآنِ ؟

تحدّث العلماء عن ترجمة القرآن من النواحي التالية:

أولاً: هل في المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة أخرى؟

ثانياً: إذا كان ذلك مستطاعاً فهل يجوز الإقدام على ترجمته شرعاً؟

ثالثاً: وإذا جازت شرعاً فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلي، في التعبّد بتلاوتها وفي صحة الصلاة بها؟

فأما الحديث عنها من الناحيتين؛ الثانية والثالثة، فهو ما يهمّ الباحث في الشريعة الإسلامية وأحكامها، وليس كتابنا هذا ـ كما قد علمت ـ موضوعاً لبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بكتاب الله تعالى.

ولكن الذي يتعلق بغرضنا في هذا الكتاب، هو التحقيق في الناحية الأولى من هذه المسألة وهي: هل في المستطاع أن يترجم القرآن إلى أيّ لغة أخرى؟

ولا ريب أن الإجابة على هذا السؤال إنما تعتمد على دراستنا السابقة للغة القرآن وأسلوبه وخصائصه التعبيرية والبلاغية.

غير أنه ينبغي لنا قبل أن ندخل في الإجابة على هذا الموضوع، أن نعرِّف الترجمة، ونوضح الفرق بينها وبين التفسير، فكثيراً ما يقع الوهم في معالجة هذا البحث بسبب التباس هاتين الكلمتين على الباحث وتداخل مفهومهما عنده.

والكلمتان ـ في الاصطلاح الذي نحن بصدده ـ مختلفتان في المفهوم والمدلول وبينهما فرق كبير في المعنى، وإن وقع التوسّع والتسمّح فيهما عند إرادة المعنى اللغوي العام[1].

فأما الترجمة: فهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى عن طريق التدرّج من الكلمات الجزئية إلى الجمل والمعاني الكلية. أي إن الوسيلة التي تُتبع في نقل المعنى العام عند الترجمة ـ هي نقل معنى كل كلمة على حدة، والتعبير عنه بكلمة مقابلة، ثم تركيب مجموع الكلمات وتأليفها حسب المعروف في اللغة المترجم إليها.

أما التفسير: فهو نقل المعنى القريب أو البعيد المقصود من الألفاظ، إلى لغة أخرى مختلفة، أو إلى ألفاظ أخرى في نفس اللغة، دون النظر إلى الألفاظ الجزئية التي تألّف منها المعنى واتضح بها المقصود.

وبذلك تعلم أن الترجمة تختلف عن التفسير، في نقطتين أساسيتين؛

أولاهما: الاهتمام بالكلمة والأداة التعبيرية في الترجمة دون التفسير.

والثانية: أن الترجمة لا تكون إلا نقلاً لمعنى الألفاظ من لغة إلى أخرى، في حين أن التفسير يكون كذلك ويكون تعبيراً عن المعنى بألفاظ أخرى في نفس اللغة. وهناك فروق ثانوية أخرى بين الكلمتين لا داعي إلى إطالة البحث بذكرها في هذا المقام[2].

* * *

بعد بيان الفرق بين الترجمة والتفسير نعود فنقول:

أمن الممكن أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى؟

والجواب: أن ذلك مستحيل، وإذا وقع ما يسمى ترجمة من حيث

---

(١) انظر مناهل العرفان: ٢/ ٦ وما بعدها.

(٢) انظر هذه الفروق في كتاب مناهل العرفان.

الصورة، فهو في الحقيقة ليس إلا تشويهاً لمعاني القرآن، وتلبيساً للمقصود بغيره وتمزيقاً لأحكامه وحججه.

وإنما أسرعنا الحكم بهذا الشكل، لأنه نتيجة بدهية لدراستنا السابقة عن أسلوب القرآن ومنهجه وخصائصه، وجدير بمن وقف على كل ما قد ذكرناه وأوضحناه أن يعلم بنفسه هذه النتيجة ويدركها.

فقد تبين لك فيما مضى أن القرآن يتبع منهجاً فريداً في التعبير عن المعاني، وهو منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارىء، وهو كما قلنا منهج مطّرد في القرآن يظهر في كل بحوثه ومواضيعه.

كما تبين لك أنه يعبّر عن المعاني المتعددة المختلفة بلفظة واحدة، وهي ظاهرة تتجلى في كثير من آيات القرآن وألفاظه، وقد مرّت بك أمثلة كثيرة لذلك عند حديثنا عن أسلوب القرآن وإعجازه.

وبدهي أن منهجاً تعبيرياً بهذا الشكل، يستعصي على الترجمة. إذ الترجمة كما قلنا هي نقل المعنى العام من خلال نقل معاني الكلمات الجزئية، والكلمات الجزئية التي تتألف منها الجمل القرآنية، إنما تصور المعنى المقصود ـ على الغالب ـ بأسلوبها وليست تنقل المعنى المراد بدلالتها اللغوية الأصلية المجردة.

فإن ذهبت تنقل معاني الكلمات، مع ذلك، كما هي، تألف لك منها معنى آخر غير مقصود ولا صحيح إطلاقاً.

وإن ذهبت تتجاهل الكلمات، وتهتم بالمعنى العام المقصود من ورائها عن طريق التجسيم والتخييل وما إلى ذلك، فقد تحولت عن الترجمة إلى التفسير. وهو بحث آخر.

فالقرآن الكريم مثلاً يقول: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقكَ ولا تبسطْها كلَّ البسطِ، فتقعدَ ملوماً محسوراً﴾[1] وأنت ترى أن الألفاظ هنا، ليس شيء منها يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية، وإنما هي

---

(١) الإسراء: ٢٩.

تكشف عن المعنى المراد بواسطة التصوير والتخييل، والأداة المستعملة لذلك جملةٌ من المجازات والتشبيهات والاستعارات المختلفة. فكيف يمكنك أن تترجم هذه الآية ترجمة سليمة لا تفسد المعنى ولا يخرج عملك فيها من الترجمة إلى التفسير؟!..

والقرآن يقول: ﴿ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوِّين ﴾[1] وقد مرّ بك أن «مقوين» تحمل معنى: الجائعين، المقيمين في البيداء، المستمتعين. ويقول: ﴿ أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ﴾[2] و﴿ قراراً ﴾ بيان لكل الأسباب التي بها أمكن أن يستقر الإنسان على الأرض، ويقول: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[3] ودحى بمعنى: وسع، وبسط، وكوّر، ودوّر، كما قد مرّ بيانه فيما مضى. وقال عن وصف الخمرة في الجنة: ﴿ لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزفون ﴾[4] وقد نفى بهاتين الكلمتين جميع عيوب الخمرة المعروفة من ذهاب بالعقل وإذهاب للمال، ونفاد للشراب، وتقزز من طعمه وحرقته.

فكيف تتأتى ترجمة هذه الألفاظ إلى ألفاظ أخرى تحمل نفس المرونة في الدلالة، وتحمل نفس المعاني المختلفة المتنوعة التي لا بدّ من دلالة اللفظ عليها جميعها لتتم الترجمة، إذ إن هذه المعاني كلها مقصودة معاً في البيان القرآني؛ مع العلم بأنك لو رحت تشرح دلالات كل لفظة في شرح مطوّل من الألفاظ والبيان، فأنت حينئذ مفسِّر ولست بمترجم

وإليك ما يقوله في بيان هذا المعنى ابن قتيبة رحمه الله:

«.. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب».

---

(١) الواقعة: ٧٣.

(٢) النحل: ٦١.

(٣) النازعات: ٣٠.

(٤) الواقعة: ١٩.

«ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿ وإما تخافنّ من قوم خيانة فانْبِذْ إليْهم عَلى سَواء ﴾[1] لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عين المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء».

«وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنا على آذانهم في الكهف سنينَ عدداً ﴾[2] إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه، فإن قلت أنمناهم سنين عدداً، لكنت مترجماً للمعنى دون اللفظ».

«وكذلك قوله تعالى: ﴿ والّذينَ إذَا ذُكِّرُوا بآيات ربِّهم لم يَخرُّوا عليها صُمًّا وعُمْياناً ﴾[3] إن ترجمته بمثل لفظه استغلق، وإن قلت: لم يتغافلوا، أدّيت المعنى بلفظ آخر»[4].

* * *

فإذا أدركت أن ترجمة القرآن غير ممكنة بمعناها الصحيح، علمت الجواب عن الناحيتين الثانية والثالثة لهذه المسألة أيضاً. ذلك أن الشيء الذي لا يستطاع إنجازه يعتبر باطلاً من حيث وجوده. ويعتبر محرّماً من حيث ممارسته لما فيه من الفساد والإفساد. وإذا كان الأمر فيه كذلك فلا شك أنه لا يصحّ التعبّد بالترجمة ولا تصحّ الصلاة بها، ولا داعي إلى أن نطيل في ذلك من النواحي الشرعية؛ بعد أن عرفت فساد الأمر من الناحية اللغوية ومن حيث الإمكان.

* * *

بعد هذا نقول: إن المتأمل ليعجب، عندما يرى ـ مع وضوح هذا الذي ذكرناه ـ دعوة ملحّة، لا تزال تنبع من هنا وهناك، تنادي بضرورة ترجمة القرآن

---

(١) الأنفال: ٥٨.

(٢) الكهف: ١١.

(٣) الفرقان: ٧٣.

(٤) تأويل مشكل القران لابن قتيبة صفحة: ١٦.

إلى اللغات المختلفة، وتحتجّ لذلك بالضرورة الداعية إلى اطّلاع الأمم المختلفة على حقائق القرآن وأحكامه ومحتوياته. وهي دعوة بدأت تلحُّ وتشتدّ وتجادل عن نفسها منذ أوائل عهد الاحتلال البريطاني لمصر[1] بزعم حاجة العالم الإصلاحية إلى ذلك!.

فإن كان المقصود، إطلاع العالم على حقيقة القرآن وعظمته. فإن القرآن ليس قرآناً إلا من حيث أنه كتاب عربي مبين، وقد علمت في أول هذا الكتاب أن القرآن هو: اللفظ المنزل على رسول الله ﷺ، واللفظ الأعجمي ليس هو الذي أُنزل، فهو ليس بقرآن ألبتة. وأما عظمته وروعته، فإن شيئاً من ذلك لا يبقى أو يظهر عند تقديمه مترجماً إلى الناس، بل يظهر منه عند ذلك، معانٍ سقيمة مشوهة وتعابير غريبة غير مفهومة. فلا القرآنية تبقى لدى الترجمة ولا عظمة القرآن تتجلى وتظهر بها.

وإن كان المقصود، أن تطّلع الأمم المختلفة على ما تضمنه القرآن من مبادىء وشرعة وأحكام، فإن ذلك يمكن أن يتم بأجلى مظهر وبأيسر طريق، إذا ما فسّر القرآن تفسيراً وافياً واضحاً باللغة المطلوبة فالتفسير هو الذي يفي بهذا الغرض لا الترجمة المزعومة.

وهكذا، يتجلى للمتأمل ما تنطوي عليه هذا الدعوة العجيبة من الدخيلة والريب. وحسبك دليلاً على ذلك أن تعلم أن الحاجة إلى ما يسمى بـ (ترجمة القرآن) لم تظهر عند أيّ فئة من الناس ولم يدع إليها أيّ مفكّر أو باحث، خلال القرون المنصرمة كلها إلى هذا القرن الذي نحن فيه، مع أن الأسباب التي يُتذرع بها اليوم كانت موجودة بأجلى المظاهر بالأمس.

* * *

(١) يجدر بالقارىء أن يرجع إلى مجلة الأزهر «نور الإسلام» السنة الثامنة. العدد الثاني وما بعده، ففيها إثارة لموضوع ترجمة القرآن، أثاره الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر إذ ذاك، وناقشه في ذلك جمهور كبير من الكتّاب والباحثين. ومعلوم أن مصطفى المراغي نصّب شيخاً للأزهر بعد «الإصلاح» الذي أدخل عليه بتخطيط من اللورد كرومر إذ ذاك. راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين، ومقدمة كتاب تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث لمؤلف هذا الكتاب.